مبادئ الجهاد الأكبر

الإعداد والإخراج الالكتروني

مبادئ الجهاد الأكبر

(أصول تهذيب النفس)

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠

ص.ب. ٢٥/٣٢٧ . ٢٤/٥٣

الكتاب: مبادئ الجهاد الأكبر

تأليف: د. عبد الله حاجي صادقي

ترجمة: مركز نون للتأليف والترجمة

نشر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

الطبعة الأولى - نيسان ٢٠١٣ م - ١٤٣٤ هـ

مركز نون للتأليف والترجمة

مبادئ الجهاد الأكبر

(أُصول تهذيب النفس)

مركز نون للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الإنسان هو أهمّ موضوعٍ نال اهتمام المدارس الفكريّة بمختلف توجّهاتها، لأنّه محور الخلقة في الحياة الدّنيا. فقد تناولت هذه المدارس كيانه بالبحث والتّحليل من جميع النّواحي، مثل كيفيّة خلقته وحدود قدرته ومكامن شخصيّته ومكانته في عالم الخلقة وصلته بالآخرين وأبعاده الوجوديّة وحقيقة الكمال الذي يأخذ بيده إلى أُفق السعادة المنشودة. إلا أنّ أهمّ موضوعين يُطرحان على طاولة البحث هنا، هما معرفة مكانة الإنسان وقيمته الحقيقيّة في كلّ واحدةٍ من هذه المدارس، وحقيقة الكمال المنشود حسب متبنّياتها. فكلّ مدرسةٍ تدّعي أنّ نظريّاتها وبرامجها واستراتيجيّاتها الخاصّة من شأنها أن تضع الإنسان في موقعه الذي يستحقّه، وبالتالي تضمن له السعادة وبلوغ برّ الأمان.

المدارس الفكريّة لها رؤى مختلفةٌ حول واقع كمال الإنسان الذي يحقّق له السعادة الأزليّة، وكذلك تختلف في سبيل بلوغ هذا الكمال، لكنّها تتّفق على أنّه مخلوقٌ يطمح لنيل الكمال وبلوغ السعادة. فأتباع كلّ مدرسةٍ قد أدلَوا بدلوهم في هذا المضمار،

وذلك طبق معتقداتهم ورؤيتهم بالنسبة إلى عالم الوجود بشكلٍ عامٍّ، وعلم الوجود الإنسانيّ وقيمة الإنسان بشكلٍ خاصٍّ؛ وأجابوا في نظريّاتهم عن سؤالين في هذا المضمار، هما:

ما هو الكمال المنشود الذي يحقّق السعادة للإنسان؟

ما هو سبيل بلوغ هذا الكمال؟ أي ما هو طريق السعادة؟

فهذان السؤالان هما أساس نشوء هذه المدارس الفكريّة وسائر النظريّات المتعلّقة بكيان الإنسان.

أمّا المدارس غير الدينيّة فقد طرحت نظريّاتٍ مبتورةً في تعريف الإنسان ومحدودةً ببعض خصاله، متجاهلةً سائر شمائله ومتطلّبات حياته؛ وذلك يعود إلى عدم قدرتها على الإحاطة بطبيعته وطاقاته المكنونة ومختلف أبعاد وجوده بشكلٍ علميٍّ شاملٍ، وكذلك لعدم إلمامها بواقع هذا المخلوق البديع. لذلك أخفقت في بيان واقع كماله وسعادته المنشودة وعجزت عن توجيهه نحو الهدف الصحيح، فكان عمرها قصيراً لأنّ آراءها نُقضت من قِبَل المدارس التي تلتها.

ونُحيط القارئ الكريم علماً بأن هذا الكتاب يسلّط الضوء على مكانة الإنسان وقيمته بشكلٍ عامٍّ، وكذلك سنطرح فيه تعريفاً للإنسان الكامل وسبيل بلوغ الكمال المنشود، وذلك في رحاب النظرة الإسلاميّة التوحيديّة بالاعتماد على مصادرنا الدينيّة ومعارفنا الإسلاميّة دون التعرّض إلى نظريّات سائر المدارس.

حسب رؤيتنا الدينيّة فإنّ الله تعالى هو محور الكون وأساس الوجود، والإنسان مخلوقٌ يحظى بمقامٍ رفيع يفوق سائر المخلوقات، وبالطبع دون مقام خالقه. فهل يبقى مجالٌ لمحوريّة الإنسان في الكون بالنسبة للموحّد الذي يعتقد أنّ الله تعالى هو محور الكون؟! أو أنّ الواقع هو ما يدّعيه أنصار الحداثة وأدعياء حقوق الإنسان بأنّ الطريق الوحيد لتحقّق كرامة الإنسان ومحوريّته في الكون هو أن يحلّ محلّ الله تعالى ويكون هو الأساس بدلاً عنه تعالى؟!

لا يختلف اثنان في أنّ مفاهيم كتاب الله تعالى وتعاليم ديننا الحنيف تؤكّد على عدم وجود أيّ تعارضٍ بين مكانة الإنسان وعظمة خالقه، وكذلك نستلهم منها عدم وجود تضاربٍ بين محوريّة الله تعالى في الكون وكرامة الإنسان وبلوغه الكمال المنشود. وبالطبع، فإنّ ادّعاء هكذا تعارضٍ أو تضاربٍ مرفوضٌ جملةً وتفصيلاً،[1] بل الواقع أنّ أوامر الله تعالى وتعاليم الشريعة برمّتها تنصبّ على هداية الإنسان وسموّ شخصيّته، أي إنّه

(1) هناك ادّعاءات بوجود الكثير من التناقضات في هذا المضمار قد طُرحت لأهداف معيّنة كونها تنصبّ في خدمة الأفكار العلمانيّة المتأثّرة بالثقافة الغربيّة وتوجّهات الكنائس في القرون الوسطى، مثل تضادّ العلم مع الإيمان، وتضادّ العقل مع التعبّد، وعدم القدرة على التلفيق بين محوريّة الحقّ والتكليف، والتضارب بين الحكومة الدينيّة والحكومة الشعبيّة، وعدم الانسجام بين السعي للعيش بكرامةٍ في الحياة الدّنيا وإعمار الآخرة، وما إلى ذلك من ادّعاءاتٍ واهيةٍ لا وجود لها في تعاليمنا الإسلاميّة. فنحن نعتقد أنّ العلم والإيمان مكمّلان لبعضهما بعضاً، وأنّ العبادة تستند إلى أقوى أُسس التعقّل والمنطق، وكذلك نؤمن بأنّ محوريّة الحقّ هي أساس التكاليف الدينيّة، وأنّ الطريق الوحيد لإرساء دعائم حكومةٍ شعبيّةٍ يكمن في الخضوع لحكومة الله المطلقة، وبالطبع فإنّ السعي لعمران الدنيا يعدّ مقدّمةً لعمران الآخرة. فمن الضروريّ بيان تفاصيل هذه القضايا في مكانها المناسب.

عزّ وجلّ قد جعل جميع القوانين والأحكام الشرعيّة تتمحور حول الإنسان وسعادته ومصالحه الحقيقيّة. فالله خلق ابن آدم ويعلم بجميع أبعاده الوجوديّة وطاقاته الكامنة ومتطلّباته ومصالحه، لذا حاشى له أن يغفل عنه، حيث لم يترك جانباً من كيان هذا المخلوق إلا وساقه نحو الصراط القويم. فالشريعة المقدّسة التي تقود الإنسان نحو الهدى، لا تتأثّر بأيّة عوامل داخلية، مثل المصالح الشخصيّة والمعتقدات والميول الذاتيّة والمحدودة، أو خارجيّة مثل المصالح الاجتماعيّة والتوجّهات الجماعيّة والعوامل البيئيّة ومختلف الضغوط التي يتعرّض لها الإنسان؛ لذلك ليس هناك أيّ عاملٍ يؤثّر على التشريع الذي يتمحور حول تلبية حاجات الإنسان وسوقه نحو الكمال المنشود[1].

وحسب تعاليم ديننا الإسلاميّ، لا يمكن للإنسان أن يحظى بمعرفة الحقيقة وأن يتمتّع بحياةٍ طيّبةٍ، ولن يتسنّى له الخروج

(1) لا شكّ في أنّ أفضل وأهمّ برنامجٍ من برامج الحياة وأكثرها تاثيراً لا بدّ وأن يتّصف بميزتين أساسيّتين، هما:

أولاً: المعرفة التامّة بالمخلوق الذي وضع هذا البرنامج لأجله؛ لذا فإنّ هذا البرنامج هو أفضل سبيلٍ يتّبعه الصانع لتوجيه وهداية خلقه.

ثانياً: يجب أن لا يتأثّر بالقضايا الجانبيّة والمصالح الشخصيّة والاجتماعيّة، وأن لا يقع تحت تأثير بعض الضغوط والقضايا الأخرى؛ لذا لا بدّ للمشرّع من أن يجعل ملاك تشريعه مراعاة المصالح الحقيقيّة والطاقات الموجودة.

وبالطبع لا أحد يمكنه أن يتّصف بهاتين الخصلتين سوى الخالق جلّ شأنه الذي أحاط بكلّ شيءٍ علماً وهو غنيٌّ عن العالمين، إذ لا يمكن لأحدٍ غيره أن يتّصف بذلك وليس من شأن أيٍّ كان وضع قانونٍ متكاملٍ سواه سبحانه وتعالى.

عـن إطـار الجمود المادّي ورغبـات النفس الحيوانيّـة ولن يبلغ مكانته الأصـليّة، إلا بعد أن يُلبّي دعـوة الله تعالى ونبيّه الكريم ﷺ؛ إذ قـال عزّ وجلّ في كتابـه العزيز: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾[1] .

وقد تطرّق هذا الكتاب إلى بيان المكانة الحقيقيّة للإنسـان في الحياة الدُّنيا بإيجازٍ اعتماداً على معارف كتاب الله المجيد وأحاديث المعصـومين عليهم السلام . إضـافة إلى ذكر بعض البرامج الهامّـة والمناهـج التـي وضـعها ديننـا الحنيف لبلـوغ الكمال الحقيقيّ الذي يُحقّق للإنسان السعادة الأزليّة.

فكلّ خطوةٍ يخطوها الإنسـان في إصـلاح ذاته ويسـلك من خلالها سـبيل الهدى لتهذيب نفسه، هي (الجهاد الأكبر) طبق تعاليمنـا الدينيّة؛ وبالطبـع لا بدّ لكلّ مصـلحٍ أن يكون في ذاته صـالحاً. ولا ريب في أنّ الجهاد الأكبر هو الشـغل الشـاغل لكلّ مَن يبحث عن الحقيقة، لا سـيّما الشباب المتطلّعين إلى سلوك طريق السعادة وأصحاب النهج الصحيح في كبح النفس الأمّارة العاتية.

ولا ندّعـي إن الكتـاب اسـتوفى الموضـوع برمّتـه دون أيّ نقصٍ، لكن نرجو من الله العزيز القديـر أن يتقبّل هذا الجهد المتواضع، وأن يحظى برضـى إمامنا ومقتدانا صاحب العصر

(1) سورة الأنفال، الآية 24.

والزمـان المهديّ الموعود عليه السلام ، إذ كلّ مـا لدينا من نعَمٍ هي ببركة ولايته. ونسـأل الله تعالى أن يكـون نقطة انطلاقٍ لتوجيه الشـباب الواعيـن ذوي الفطرة السـليمة والـروح النـزيهة نحو السبيل القويم.

حقيقة الإنسان في القرآن الكريم

الإنسانية صنفان

يمكننا تصنيف الآيات الكريمة التي تطرّقت إلى بيان حقيقة الإنسان وذكرت مكانته، بشكلٍ مباشرٍ، إلى مجموعتين، كالتالي:

1- الآيات التي عرّفت الإنسان بأنّه مخلوقٌ ضعيفٌ جاهلٌ ظالمٌ كفورٌ عجولٌ ولا طاقة له، حتّى أنّها جعلته أدنى منزلةً من الأنعام وأضلّ سبيلاً، وهي قوله تعالى:

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1].

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾[3].

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[4].

(1) سورة النساء، الآية 28.
(2) سورة إبراهيم، الآية 34.
(3) سورة الزُّخرف، الآية 15.
(4) سورة المعارج، الآيات 19-21.

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[1]. ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾[2].

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾[3]. ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾[4].

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾[5]. ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[6].

﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾[7].

2- الآيات التي عرّفت الإنسان بأنّه أفضل المخلوقات وأنّه خليفة الله في الأرض وحامل أمانته، وهو مَن سجد له الملائكة ومَن علّمهم الأسماء، وهو الغاية من خلقة سائر المخلوقات، كالآيات التالية: قال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ۝٧٠﴾[8].

(1) سورة القيامة، الآية 5.
(2) سورة العلق، الآيتان 6-7.
(3) سورة العاديات، الآية 6.
(4) سورة الإسراء، الآية 100.
(5) سورة الإسراء، الآية 11.
(6) سورة الأنفال، الآية 22.
(7) سورة الأعراف، الآية 179.
(8) سورة الإسراء، الآية 70.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾[2]. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[3].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[4].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[5]. ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[6].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً

(1) سورة البقرة، الآية 30.
(2) سورة البقرة، الآية 33.
(3) سورة البقرة، الآية 34.
(4) سورة البقرة، الآية 29.
(5) سورة التين، الآية 4.
(6) سورة لقمان، الآية 20.

لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾[1].

وبعد أن أشار عزّ وجلّ إلى خلقة الإنسان في سورة (المؤمنون)، قال:

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2].

سرّ اختلاف بني آدم في الإنسانية

إذن، نستلهم من هذه الآيات والكثير من الآيات الأخرى أنّ القرآن الكريم قد عرّف الإنسان وأكّد على أنّه إمّا أن يكون في

(1) سورة النحل، الآيات 5 إلى 17.

(2) سورة المؤمنون، الآية 14.

وهناك آياتٌ أُخرى بهذا الصدد، منها: الآية 81 من سورة النحل، الآية 166 من سورة الشعراء، الآية 21 من سورة الروم، الآيتان 32 و33 من سورة إبراهيم، الآية 12 من سورة الجاثية، الآيتان 26 و37 من سورة الحجّ.

غاية السموّ أو في غاية الانحطاط؛ فهو في نظام الخلقة يعدّ أفضل مخلوقات الله تعالى وأشرفها، وفي نفس الوقت أسوأها وأرذلها وأكثرها شرّاً. فما هو سرّ هذه الازدواجيّة الظاهريّة؟! وكيف يمكننا الجمع بين هذين النوعين من الآيات؟! يا تُرى هل أنّ الله تعالى خلق العالم وسخّر ما فيه لهذا الإنسان الكفور الجحود الضعيف العجول الظالم الشرّير، وفي الوقت نفسه جعله خليفته في الأرض؟! وهل أنّ الإنسان هو أفضل المخلوقات وأشرفها أو أنّه أرذلها؟!

وقد أجاب القرآن الكريم على هذه الاستفسارات بتفصيلٍ أحياناً وبشكلٍ إجماليٍّ في أحيان أُخرى، وبيّن مكانة الإنسان في عالم الخلقة واختلاف بني آدم في هذه المكانة.

أمّا الجواب الإجماليّ الذي ساقه القرآن الكريم بهذا الصدد، فيمكن تقريره كالآتي: أكّدت الكثير من الآيات أنّ كلّ مَن يُنكر الطاقات والنِّعم التي وهبها الله تعالى له، سوف يكون مصيره الخسران والحرمان من هذه النِّعم والسقوط في الحضيض، على العكس من يؤمن بمبدأ الخلقة والمعاد ويصلح أمر دينه ودنياه. فالمستلهم من كتاب الله تعالى أنّ مكانة كلّ إنسانٍ مرهونةٌ بمدى إيمانه وتقواه، وبالطبع فإنّ أثر ذلك يبدو جليّاً في حياته؛ فالإنسان الذي لا يتحلّى بالإيمان والعمل الصالح هو في حقيقته مخلوقٌ ضعيفٌ كفورٌ ظالمٌ، وأتفه من البهائم.

أمّا المؤمن الذي يتّخذ العمل الصالح منهجاً له، فهو خليفة الله تعالى في الأرض وأشرف مخلوقاته قاطبةً، بل هو الذي خُلقت من أجله المخلوقات. ويمكن تلخيص ما ذُكر في سورة العصر المباركة: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾[1]. ويقول العلاّمة محمّد حسين الطباطبائيّ في تفسيرها: تُلخّص السورة جميعَ المعارف القرآنيّة وتجمع شتات مقاصد القرآن في أوجزِ بيانٍ[2].

ومن المؤكّد أنّ تجارة الدنيا لا ربح فيها، وكلّ مَن يتّخذها هدفاً له فهو خاسرٌ؛ سواءٌ علِم الإنسان أم لم يعلم فإنّه في الحياة الدنيا يستنزف جميع طاقاته الماديّة والمعنويّة، ولا محالة في أنّه سيخسر حياته الدنيويّة في نهاية المطاف. واستناداً إلى هذا القانون الطبيعيّ فإنّ الطريق الوحيد لاجتناب الخسران العظيم هو سلوك طريق الإيمان الذي يتجلّى بالعمل الصالح والدعوة إلى الحقّ والنصيحة للآخرين. فلا يمكننا مقارنة الإنسان الصالح الذي هو مثالٌ للإنسان الكامل مع مَن يتّبع هواه وينتهج سبيل الفسق والفجور، حيث أكّد عزّ شأنه على هذه الحقيقة في كتابه العزيز حين قال: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ

(1) سورة العصر، الآيات 1 – 3.

(2) العلاّمة محمّد حسين الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج20، ص355.

كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[1]. كما قال سبحانه أيضاً: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[2]. وبيّن تعالى في آيةٍ أُخرى حقيقة الإنسان الصالح وواقع الإنسان الطالح، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾[3]. وأشار سبحانه وتعالى إلى أنّ كلّ إنسانٍ سيحظى بمنزلة خاصّة نتيجةً لأعماله، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾[4]، وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾[5].

إضافةً إلى ما ذُكر، هناك كثيرٌ من الآيات قد تطرّقت إلى مكانة بني آدم وأوعزت اختلافهم في ذلك إلى معتقداتهم وأفعالهم، إذ قسّمتهم إلى فئتين أساسيّتين، هما:

1- المنحطّون غاية الانحطاط الذين هم أسوأ الخلق.

2- الشُّرفاء غاية الشرف الذين هم أفضل الخلق.

(1) سورة ص، الآية 28.
(2) سورة الجاثية، الآية 21.
(3) سورة البيّنة، الآيتان 6- 7.
(4) سورة الأحقاف، الآية 19.
(5) سورة غافر، الآية 58.

وبالطبع فـإنّ الإيمان الحقيقيّ والعمل الصـالح هما اللذان يرفعان الإنسـان إلى مقام الشرف والسموّ، وكما قال رسول الله ﷺ فإنّ ملائكة الله تعالى هم في خدمة أصـحاب هذا المقام الكريم: «ما خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ خَلقاً أكرَمُ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ من مؤمنٍ، لأنَّ الملائكةَ خُدّامُ المؤمنينَ»[1].

طبيعة الخلقة الإنسانية

ولكي ندرك مكانة الإنسان في كتاب الله تعالى وسبب تذبذب الخلق بين الكريم غاية الكرم والمنحطّ غاية الانحطاط، فلا بدّ من إدراك طبيعة خلقته وأبعاد ذاته الوجوديّة، أي علينا دراسـة علم الوجود الإنسانيّ في نطاق القرآن الكريم.

حسـب المفاهيـم القرآنيّة فـإنّ خلقة الإنسـان تختلف عن سـائر المخلوقات، فـكلّ نوعٍ مـن المخلوقات ما عدا الإنسـان، قـد خُلق بنسـقٍ واحدٍ وله بعدٌ واحدٌ؛ إلا أنّ خلقة الإنسـان تتمتّع ببعدين متعاكسـين تماماً، فهو إمّا أن يكون رمزاً للشـرّ أو رمزاً للخيـر. قال تعالى فـي كتابه الكريـم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾[2]. وقال سـبحانه في آيـةٍ أُخـرى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾

(1) محمّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار، ج66، ص19.

(2) سورة الحجر، الآيتان 28 – 29.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

إنّ البُعدين الوجوديّين للإنسان والمنهجين المختلفين اللذين يسلكهما في الحقيقة، ناشئان من أصل خلقته. فميول البشر وتوجّهاتهم تنقسم إلى قسمين:

أوّلاً: الميول الماديّة التي هي من سنخ الطين والحمَأ المسنون، حيث تسوق الإنسان نحو العالم الحيواني السفليّ.

ثانياً: الميول الروحانيّة التي تسوق الإنسان نحو الهدى وعالم الملكوت العلويّ.

والإنسان له مطلق الاختيار في أن يتّخذ أحد هذين المنهجين مسلكاً له وأن يسخّره في خدمته؛ فبنفسه يعيّن مسار حياته. والحقيقة أنّ اختياره يعدّ من مقتضيات هذين البعدين الوجوديّين. ولا ريب في أنّ هدف الأنبياء والرُّسل ترسيخ دعائم البُعد الروحاني لدى البشر، على عكس الشيطان الذي لا هدف له سوى تقوية الميول الماديّة والبُعد الحيواني في أنفسهم. ولكنّ هذا قطعاً لا يعني سلب الاختيار من الإنسان وحرمانه من اتّخاذ القرار، لأنّ الله تعالى قد زرع هذه الإرادة في ذاته. فاتّخاذ القرار من شأنه أن يقود الإنسان نحو الرّفعة والكمال، أو يسحقه ويهوي به في قعر الذلّ والهوان، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[2].

(1) سورة ص، الآيتان 71–72.

(2) سورة الشمس، الآيات 7 إلى 10.

وقد تمخّض عن هذين المسلكين صراعٌ عظيمٌ في وجود ابن آدم بين القوى الثلاث التي تحكم ذاته، وهي:

1- القوّة العاقلة.

2- القوّة الشهويّة.

3- القوّة الغضبيّة.

فالقوّة العاقلة التي هي رمز الخير والصلاح تستمدّ تعاليمها من وحي الأديان وهدى الأنبياء، أمّا القوّتان الأُخريان فهما رمزا الشرّ والضلال وتستمدّان تعاليمهما من الشيطان إذا لم يتم اخضاعها لحكم العقل والشرع. وميدان الصراع بين هذه القوى والمتمثّل بالخير والشرّ هو النفس الإنسانيّة، كما قال الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «**العَقلُ صاحِبُ جَيشِ الرّحمانِ، والهوَى قائدُ جَيشِ الشّيطانِ، والنّفسُ متجاذِبةٌ بينهما؛ فأيّهما غلَبَ كانت في حَيّزِهِ**»[1].

نستنتج ممّا ذُكر أنّ الدرجات المختلفة للبشر حسب المفاهيم القرآنيّة تعود في أساسها إلى الصراع القائم بين القوّة العاقلة وهوى النفس. فانتصار العقل في هذا الصراع بفضل اتّباعه تعاليم الشريعة وسيطرته على الأهواء والنزعات الحيوانيّة، دليلٌ على أنّ النفس خاضعةٌ لأوامر بارئها وجنده، وهي النفس

(1) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، المكتب الإعلامي للحوزة العلميّة، سنة الطبع 1362ش، ج6، ص405.

المطمئنّة التي وُعدت الجنّة والنعيم الأبديّ. وأمّا انتصار الجانب الشيطانيّ على العقل والمتجسّد بالحمَأ المسنون والذي يتمخّض عنه تسخير النفس للميول الماديّة الذميمة، فهو دليلٌ على أنّ النفس خاضعةٌ لوساوس الشيطان وجنده، وهي النفس الأمّارة التي لا تتورّع عن ارتكاب القبائح. وعندما تطغى القوى الشهوانيّة والحيوانيّة على النفس الأمّارة وتنقاد إلى وساوس الشّيطان فيؤنّبها العقل ويلومها على عصيانها واستسلامها لهجمات أعدائها، فهي التي تُسمّى النّفس اللوّامة.

كمال النفس الإنسانية

الإنسان هو الذي يحدّد مصيرَه ومكانته وذلك بالطبع حسب المنهج الذي يسلكه، فعندما يُدرك أنّ له جانباً روحيّاً أرقى من عالمه الماديّ ويختار سبيل التقرّب إلى بارئه ويجعله هدفاً له فتكون العبوديّة لله تعالى هي الصبغة العامّة لجميع حركاته وسكناته؛ فهو إنسانٌ كريمٌ عند الله تعالى ولا يُضاهيه أحدٌ من المخلوقات بالفضل، وحتّى أنّ حرمته أعظم من حرمة الكعبة والملائكة المقرّبين.[1] ومهما تقدّم هذا الإنسان في سيرته التربويّة نحو معبوده الأوحد وكلّما ازداد مدى شوقه للوصول إليه، فلا شكّ في أنّه سيحظى باللذّة الواقعيّة الأزليّة. لكنّه إذا

(1) روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: « المؤمنُ أعظمُ حُرمَةً من الكعبةِ». (بحارالانوار، ج64، ص 71) و عن الرسول صلى الله عليه وآله: «المؤمنُ أعظمُ حُرمَةً عندالله و أكرم عليه من ملَكٍ مُقرَّبٍ». (بحارالانوار، ج64، ص 72)

ما غفل عن حقيقة خلقته، فسوف يكون أسير شهوته الحيوانيّة ويسقط في حبائل أهوائه ونزعاته الماديّة، وبالتالي سيُسخّر طاقاته وقدراته الذاتيّة في خدمة بطنه وبدنه، فيتحوّل إلى أتفه مخلوقٍ وأسوأ مثالٍ للشرّ بين سائر المخلوقات.

رُوي أنّ عبد الله بن سنان سأل الإمام جعفر الصادق عليه السلام: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فأجابه عليه السلام قائلاً: «**قال أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: إنَّ اللهَ عزّ وجلّ ركّبَ في الملائكة عقلاً بلا شهوةٍ، وركّبَ في البهائم شهوةً بلا عقلٍ، وركّبَ في بني آدم كِلتَيهما؛ فمَن غلبَ عقلُهُ شهوَتَهُ فهو خيرٌ من الملائكة، ومَن غلبتْ شهوتُهُ عقلَهُ فهو شرٌّ من البهائم**»[1].

فالصراع الباطنيّ بين النفس الروحانيّة ذات الميول الربّانيّة والنفس الماديّة ذات النزعات الشيطانيّة، هو الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بـ(الجهاد الأكبر)، وأكّد على أنّ الشجاعة الحقيقيّة تتجسّد في الظفر في هذا الميدان، حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أشجَعُ الناسِ مَن غَلبَ هَواهُ**»[2].

وقد تطرّق الإمام الخميني رحمه الله إلى بيان حقيقة هذا الصراع قائلاً: «اعلَمْ أنَّ الإنسانَ كائنٌ عجيبٌ لهُ نشأتانِ

(1) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج1، ص362؛ محمّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار، ج6، ص299.

(2) محمّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار، ج70، ص68.

وعالمانِ، نشـأةٌ ظاهريّـةٌ ملكيّةٌ دنيويّةٌ هي بدنُهُ، ونشـأةٌ باطنيّةٌ غيبيّـةٌ ملكوتيّةٌ تكون مـن عالمٍ آخر. إنَّ لروحِ الإنسـانِ التي هي مِـن عالمِ الغيـبِ والملكوتِ مقاماتٍ ودرجاتٍ قَسَّـموها بصـورةٍ عامّةٍ إلى سـبعةِ أقسـام حيناً وإلى أربعة أقسـام حيناً ثانياً وإلى ثلاثـة أقسـام حيناً ثالثـاً وإلى قسـمين حينـاً رابعاً. ولـكلٍّ مِن المقامـاتِ والدرجـاتِ جنـودٌ رحمانيّةٌ وعقلانيّةٌ تجـذب النفسَ نحـو الملكوت الأعلـى وتدعوها إلى السـعادةِ، وجنودٌ شـيطانيّةٌ وجهلانيّةٌ تجذب النفسَ نحو الملكوتِ السُّـفليِّ وتدعوها للشقاءِ. وهناك دائماً جدالٌ ونزاعٌ بين هذين المعسـكرين، والإنسان هو سـاحة حربهما؛ فإذا تغلّبت جنودُ الرحمنِ كان الإنسانُ من أهل السـعادةِ والرحمةِ وانخرطَ في سـلكِ الملائكةِ وحُشِرَ في زمرةِ الأنبياءِ والأولياءِ والصالحينِ.

وأمّا إذا تغلّب جندُ الشـيطانِ ومعسـكرُ الجهلِ، كان الإنسانُ من أهلِ الشـقاءِ والغضـبِ - غضـوبٌ للّه سـبحانه - وحُشِرَ في زمرةِ الشياطينِ والكفّارِ والمحرومينِ»[1].

إذن، حسب الرؤية الدينيّة وطبق أُسس علم الوجود الإنساني الإسـلاميّ، فإنّ العبد سـيبلغ أرقى درجات السـموّ والكمال في عالم الملكوت وينال فضل بارئه، عندما ينتصر في نفسه الجانب المعنـويّ الروحانـيّ علـى الجانب المـادّي الحيوانـيّ في حياته

(1) الإمام الخمينيّ رَحِمَهُ اللَّهُ، الأربعون حديثاً، ص4.

الدّنيا. وبالطبع فإنّ نتيجة الصـراع الباطنيّ - الجهاد الأكبر - الذي ينتاب النفس الإنسـانيّة، هي إمّا أن تصبح مطمئنّةً ويكون صـاحبها أشـرف المخلوقات وغايـة ما في الكون كافّـةً وخليفة اللّه في الأرض، أو أن تصـبح أمّارةً بالسوء ويكون صاحبها أرذل المخلوقات وأسفل السـافلين. لذا، ليس هناك أيّة ازدواجيّةٍ في كتاب اللّه تعالى؛ إذ إنّ الآيات التي وصـفت الإنسـان بالضـعيف والجاهل والعجول وأضلّ سبيلاً من الأنعام، هي في الواقع ناظرةٌ إلى الجانب الشـيطانيّ لنفس كلّ مَـن كان عبداً للمادّة والغرائز الحيوانيّة وبعيداً عن المعنويّات، كما وصـفه تعالى شـأنه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1]. فالابتعاد عن المعنويّات وإهمال الجانب الرّوحي يجعل الإنسـان عاجزاً عن إدراك الحقائق ويحوّله إلى حيوانٍ لا يفقه من الحياة سوى الأكل والشهوة، بل يحوّله إلى جمادٍ لا شعور له. وأمّا الآيات التي وصـفت الإنسـان بأنّه أشـرف المخلوقـات وخليفة اللّه في الأرض وغايـة الخلقة، فهي ناظرةٌ إلى الجانـب الملكوتيّ لنفس كلّ مَـن كان عبـداً للّه تعالى ورجّـح دينَه على ملذّاته وشـهواته، فانتصر عقله على هواه في جهاده الأكبر.

(1) سورة الأنفال، الآية 22.

الموازنة بين كمالات الروح وحاجات البدن

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هي الحلول التي وضعتها الأديان السماويّة، ولا سيّما الإسلام، بالنسبة إلى صراع الإنسان المصيريّ - الجهاد الأكبر - كي يتسنّى له تحقيق متطلّبات حياته الماديّة وتلبية غرائزه المشروعة الضروريّة لديمومة حياته في رحاب العقل والروح السامية؟ فالإنسان بطبيعة الحال يمتلك غرائز حيوانيّة لا بدّ له من إشباعها، والإسلام لم يتجاهل هذا الأمر ولم ينهَه عن ذلك أبداً. وكذلك فإنّ التعاليم الإسلاميّة لا تأمر الإنسان بالاعتزال عن الدنيا اعتزالاً تامّاً والتزام المعنويّات وحسب، بل أمرته بالتّلفيق بين الأمرين دون أن يخالف الشّرع؛ حيث قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[1]. وانتقد عزّ وجلّ الرّهبانية التي ما أنزل بها من سلطان قائلاً: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾[2].

وقد تطرّق العلّامة الفيض الكاشاني إلى هذا الموضوع في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧﴾[3]، وذكر رواية جاء فيها أنّ ثلاثةً من أصحاب رسول الله ﷺ أرادوا

(1) سورة القصص، الآية 77.
(2) سورة الأعراف، الآية 32.
(3) سورة المائدة، الآية 87.

ترك الدنيا بعد تأثّرهم بآيات العذاب، فسلكوا مسلكاً رهبانيّاً نوعاً ما، فأقسم أحدهم أن لا ينام بالليل أبداً وحلف الثاني أن لا يفطر بالنهار أبداً وحلف الثالث أن لا ينكح أبداً. فلمّا وصل الخبر إلى النبيّ ﷺ جمع الناس وصعد المنبر وقال: **«ما بالُ أقوامٍ يُحرِّمونَ علَى أنفسِهم الطّيباتِ؟! إنِّي أنامُ بالليلِ وأنكحُ وأفطرُ بالنهارِ، فمَن رغبَ عن سُنّتي فَليسَ مِنِّي»**[1].

وتعاليمنا الدينيّة تؤكّد على وجوب التعامل مع الغرائز والرغبات النفسيّة بأُسلوبٍ أمثلٍ، أي لا بدّ أوّلاً من توجيهها بشكلٍ صحيحٍ وإشباعها وفقاً لضوابط خاصّةٍ كي لا تكون مُفسدةً تسبب الضرر للإنسان ولمن يحيط به، وحتى لا تحول دون تحقّق توجّهاته المعنويّة التي تقوده إلى السعادة. وثانياً، بما أنّ إطلاق العنان للغرائز والنزعات النفسيّة سببٌ لطغيان الإنسان ووقوعه في التهلكة، فلا بدّ من وجود رادعٍ يمسك بزمام هذه الغرائز والنزعات ويحول دون انحرافها وتمرّدها. والحقيقة أنّ هذا العامل هو القوّة العقلانيّة المسدّدة بالوحي المقدّس، حيث من شأنها تلبية رغبات الإنسان في نطاق النفس الروحانيّة وتنقذه من قيود النفس الشّيطانيّة، وتهديه إلى سواء السّبيل.

وبالطبع فإنّ أهمّ سببٍ لبعثة الأنبياء وإنزال الكتب السماويّة هو هداية العقل نحو الطريق الصّحيح وصيانته من وساوس الشّيطان

(1) الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، ج2، ص97. وقد نقل هذه الرواية العلامة محمّد باقر المجلسيّ في بحار الأنوار باختلافٍ يسيرٍ في باب النهي عن الرهبانيّة. بحار الأنوار، ج67، ص116.

وطغيان نفسه الحيوانيّة، لذا يجب على الإنسان أن يخوض غمار الجهاد الأكبر اعتماداً على أُصول الوحي السماويّ المقدّس المتجسّد في كتاب الله تعالى الذي هو هدىً للعالمين، فالتعاليم السمحاء التي يزخر بها هذا الكتاب العظيم هي أفضل سبيلٍ للسيطرة على الغرائز والنزعات الحيوانيّة والرذائل الشّيطانيّة.

فميول الإنسان إلى الغرائز النفسانيّة والنزوات الحيوانيّة قويّةٌ للغاية كونها تتلاءم مع طبيعته، وأيضاً فإنّ عدوّه اللّدود إبليس يترصّده ويتحيّن الفرص كي يقوّي لديه النزعة الحيوانيّة والرغبات الشهوانيّة، وبالتالي يصدّه عن بلوغ مراتب الفيض المعنويّ؛ بل يقوّي في نفسه الأنانيّة وحبّ الدنيا وحبّ المناصب واتّباع الشهوات وروح الهيمنة، وما إلى ذلك من رغباتٍ تهوي به وبأمثاله في الحضيض. وفي خضمّ هذا الصّراع المرير، يا تُرى كيف آزر الأنبياءُ قوى العقل وجندَ الله تعالى، ولاسيّما خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن الكريم؟ وما هي البرامج التي وضعوها للبشر كي يتمكّنوا من تحكيم عقولهم أمام القوى الشّيطانيّة التي تطغى على أنفسهم؟ وما الذي ينبغي للإنسان فعله كي يتصدّى للغرائز الباطنيّة والهجمات الشّيطانيّة حتّى يُفلح وينجو من غياهب الضلال؟ فما هي البرامج التي عرضها القرآن الكريم والسنّة النبويّة لكبح جموح النفس الشهوانيّة وتلبية متطلّباتها الشرعيّة في إطار منهجٍ معنويٍّ متكاملٍ؟

وانطلاقاً من قول رسول الله ﷺ: «**أعدَى عَدوِّكَ نفسُكَ التي بيـنَ جَنبَيكَ، فَلا تَغفـل عنها وأَوثقها بقيدِ التَّقـوَى**»،[1] فما هو السلاح الأنجع الذي يصدّ هذا الخصم العنيد ويكبت جموحه في غمار الجهاد الأكبر؟ فالنفس هي ألدّ عدوٍّ للإنسان، لأنّ الهزيمة أمامها تعني الهزيمة المطلقة والغلبة عليها تعني الغلبة المطلقة. والجواب على هذا السـؤال لا يمكن أن يتلخّص في إطارٍ علميٍّ أو دينيٍّ محضٍ، بل لا بدّ أن يكون شـاملاً واسع النطاق لأنّه ذو تأثيرٍ كبيرٍ على الإنسان، ومن شأنه تعيين مساره في الحياة.

ونحيط القارئ الكريم علماً بأنّنا سـوف نتطرّق إلى ذكر بعض السُّـبل الكفيلة بنجاة الإنسان من مهالك الشـيطان لاحقاً، وذلك اسـتناداً إلى الحقائق السـامية التي نسـتلهمها مـن تعاليم ديننا ومفاهيم كتاب الله المجيد، راجين أن تكون نقطة انطلاقٍ لعبوديّةٍ أفضـل لجميـع القـرّاء الكرام، خصوصـاً الشـباب الطامـح إلى السـعادة والكمال الواقعيّ. ولا ريب في أنّ سـموّ مبدأ العبوديّة في نفس العبد سـيُحلّق به في أُفق الملذّات المعنويّة الرّحب ويجول به في جنان الحريّة والفلاح، وفي نفس الوقت سيكسر شوكة الشّيطان الـذي يترصّـد به الحيَل أينمـا حلّ ونزل. ومن الجديـر بالذكر أنّ سبُل الكمال الحقيقي هي دواءٌ ناجعٌ لكلّ ما يلوّث الذات من ذنوبٍ وأدران؛ لأنّ تعاليمنا الدينيّة قد وضعت علاجاً لكلّ داءٍ.

(1) ابن فهد الحلّي، عدّة الداعي، ص295.

معرفة النفس

سبيل الهدى

إنّ تهذيب النّفس هو أوّل أمرٍ أوصى الإسلام به الناس للظّفر على جنود إبليس والتخلّص من صفات النّفس الرّذيلة. وبالطبع، فإنّ أوّل خطوةٍ في هذا المضمار هي معرفة حقيقة النّفس ومدى طاقاتها الكامنة وكلّ ما يرتبط بها. فهذه المعرفة تضيء طريق الإنسان في مسيرته نحو الكمال والسعادة المنشودة، كما تحفظه من أن يبيع نفسه بأبخس الأثمان وبذرائع واهيةٍ؛ فهي أسمى المعارف وأرقاها كما قال الإمام عليّ عليه السلام: «**أفضَلُ المعرفَةِ مَعرفَةُ الإنسانِ نفسَهُ**»[1]. كما قال: «**نالَ الفَوزَ الأكبَرَ مَن ظفرَ بمعرفةِ النفسِ**»[2]. وقال أيضاً: «**أعظَمُ الجهلِ جهلُ الإنسانِ أمرَ نفسهِ**».[3]

والواقع أنّ سبب انحراف الإنسان هو غفلته عن حقيقة ذاته

(1) محمّدى الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج6، ص140.
(2) المصدر السابق.
(3) المصدر السابق، ص141.

ومكانته العظيمة بين سائر المخلوقات وجهله بالهدف السامي الذي خُلق من أجله، ألا وهو بلوغ درجات الكمال عند مليكٍ مقتدرٍ. فالعبد الذي يزلّ عن طريق الصواب هو في الحقيقة منهمكٌ في بلوغ مآرب وأهداف عبثيّة بعيدةٍ كلّ البعد عن مسلك الكمال المنشود الذي يحققّ له السعادة الأبديّة، بل إنّها تحول دون بلوغه ذلك ويصبح تائهاً حائراً من حيث لا يشعر فيحاول أن ينال مبتغاه، لكن دون جدوى، حيث قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**عَجِبتُ لمَن يُنشدُ ضالَّتَهُ وقدْ أضلَّ نفسَهُ فَلا يَطلُبُها**»[1]. وقال أيضاً: «**مَن لَم يَعرفْ نفسَهُ بَعُدَ عَن سُبُلِ النّجاةِ وخَبَطَ في الضّلالِ والجهالاتِ**»[2].

وعلى الرغم من أنّ الخوض في علم الوجود الإنسانيّ للتعرّف إلى خصائص ابن آدم وطاقاته الكامنة يحظى بأهميّةٍ بالغةٍ بين مختلف المدارس الفكريّة على مرّ العصور، إلا أنّها لم تتمكّن من إشباع رغباته على المستويَين العقائديّ والعمليّ، فأخفقت في طرح منهجٍ متكاملٍ ينسجم مع واقع حاله ويلبّي جميع طموحاته ومتطلّبات حياته، وذلك بالطبع يرجع إلى ضيق نطاقها الفكريّ وعدم إحاطتها بمكامن شخصيّة الإنسان. فكلّ مدرسةٍ قد اكتفت بذكر بعض خصائص الإنسان وحقائق خلقته، ولم تتطرّق إليها كافّةً؛ لأنّها في الحقيقة لم

(1) عبد الواحد التميميّ الآمديّ، غرر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص233.
(2) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ص141.

تتمكّن من معرفة واقع الإنسان وبالتالي فشلت في السيطرة على جموح شخصيّته وتهذيبها رغم جهودها الحثيثة، فكانت نظريّاتها مبتورةً تشوبها تناقضاتٌ جذريّةٌ. لذا فإنّ كلّ مدرسةٍ باتت تنقض آراء الأُخرى لعدم إدراكها كُنه شخصيّة الإنسان وعجزها عن طرح نظريّةٍ معرفيّةٍ شاملةٍ بهذا الصدد، كما أنّها لم تطرح تفسيراً واضحاً لماضي الإنسان (مبدأ خلقته) ولمستقبله (معاده يوم القيامة)، واضطرّت لأن تتناول شخصيّته في إطارٍ ماديٍّ بحتٍ، فلم تتمكّن من تسخير طاقاته وتلبية أهدافه إلا في نطاق حياته الدنيويّة[1].

أمّا المدرسة التوحيديّة، فلا يشوب نظريّاتها أيّ خللٍ أو نقصٍ، وذلك من مبدأ النظرة التوحيديّة التي تتمحور حول وحدانيّة الله تعالى خالق كلّ شيءٍ والمحيط به علماً. فهو العالم بمكامن شخصيّة الإنسان ومتطلّبات روحه وبدنه، لذلك فقد خطّ له سبيل هدايةٍ يلبّي كلّ رغباته ويحقّق آماله في الحياتين الدنيويّة والأخرويّة؛ وهذا السبيل لا يعتريه أيّ تناقضٍ مطلقاً، باطنيّاً كان أو ظاهريّاً، ولم يُجزّأ الإنسان إلى أبعاضٍ مختلفةٍ كما فعلت المدارس الأخرى. ومن أهمّ النظريّات القرآنيّة التوحيديّة التي تُعدّ أساساً قويماً يرتكز عليه الإنسان في طريقه

(1) للاطّلاع على تفاصيل أكثر، راجع كتاب (الإنسان الكامل) للشهيد مرتضى المطهّري، وكذلك كتاب (علم الوجود الإنسانيّ) للشيخ محمود رجبي، الذي تكفّل بنشره معهد الإمام الخميني رحمه الله للتعليم والأبحاث عام 1380ش الفصل الأول.

نحو الحقّ والهدى ذهنيّاً وعمليّاً، هي اعتباره أشرف المخلوقات وأعظم آيات الله تعالى.

فالصورة الصحيحة التي عرضها كتاب الله تعالى حول حقيقة الإنسان والأُسس التي وضعها لبلوغ غاياته ومقاصده النهائيّة وتأكيده على أنّه كائنٌ يتمتّع بخصالٍ ساميةٍ تفوق سائر المخلوقات، هي قواعد وأصول تحفظه من الضلال والانجرار وراء وساوس الشيطان وملذّات الدنيا الفانية، بل تجعله يسخّر غرائزه وبدنه الماديّ خدمةً لأهدافه النبيلة بكلّ اقتدارٍ، فيتّخذها سلّماً لبلوغ مبتغاه الحقيقيّ. لذلك فقد أمره الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم بالبصيرة والتعقّل، حين قال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾[1]. كما أكّد سبحانه وتعالى على أنّ العبد لا يمكنه سلوك سبيل الهدى إلا إذا عرف نفسه وصانها من مسالك الضلال، فخاطب المؤمنين قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[2].

ولو عرف الإنسان نفسه حقّ المعرفة، فسوف يعرف مبدأه ومعاده، أي خالقه الذي أنعم عليه بالوجود، كما قال الإمام عليّ عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»[3].

فالإنسان هو أعظم آيات الله تعالى ومرآة الحقّ وأشبه

(1) سورة الذاريات، الآية 21.
(2) سورة المائدة، الآية 105.
(3) محمّدي الرّيشهريّ، ميزان الحكمة، ص142.

المخلوقات به جلّ شـأنه، وهو الذي نفخ الله فيه من روحه؛ لذا فـإنّ معرفة ذاته هي فـي الحقيقة معرفة ذات الله، وقد أكّد عزّ وجلّ على هذه الحقيقة في كتابه المجيد في قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1].

وإذا عرف الإنسـان حقيقـة وجوده وكُنه ذاته، فلن يُسـيطر أحدٌ على فـؤاده ولن تخدعه النـزوات العبثيّـة والآمال الكاذبة. قال سـيّد الموحّديـن عليّ عليه السلام: «**مَن عـرَفَ نفسَهُ لَـم يُهِنْها بالفانياتِ**»[2].

ينقل الأسـتاذ الشهيد مرتضـى المطهّري رحمه الله عن غاندي قوله: تعلّمت من الـ(أبانيشـاد)[3] ثلاثة قواعد أساسيّة اتّخذتها منهجاً لي في حياتي، وهي:

1- هناك معرفةٌ واحدةٌ في عالم الوجود، وهي معرفة النفس.

2- كلّ مَن عرف نفسه، فقد عرف ربَّه وعالمَه.

3- هناك قدرةٌ واحدةٌ في الكون، هي قدرة الإنسان على ضبط نفسه؛ وهناك إحسانٌ واحدٌ يتجلّى في محبّة الإنسان للآخرين[4].

(1) سورة فصّلت، الآية 53.

(2) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ص142.

(3) الأبانيشاد هو الجزء الأخير في مجموعة من الكتابات الهندوسية التي تُسمى الفيدات (جمع فيدا). وتكوّن الأبانيشـاد جزءاً أساسياً من مصادر الديانة الهندوسية، كما أثّرت في معظم الفلسـفات الهندية. ويُطلق عليها أحياناً اسـم الفيدنتا وتعني الكلمة تجميع الفيدا. أما كلمة أبانيشاد فتعني (الجلوس بالقرب من). وهذا يشير إلى أن هذه المادة كانت سرية في الأصل.

(4) الشهيد مرتضى المطهّريّ، مجموعة آثار (باللغة الفارسيّة)، ج22، ص430.

إنّ علم الوجود الإنسانيّ في القرآن الكريم والأصول الإسلاميّة، له أبوابٌ مستقلّةٌ وأبحاثٌ مفصّلةٌ، نكتفي هنا بذكر ما يناسب موضوع الكتاب وما من شأنه تربية النفس وترويضها، وذلك بشكلٍ موجزٍ.

حقيقة الإنسان

حسب المفاهيم السامية في كتاب الله العزيز وتعاليم ديننا الإسلاميّ الحنيف، فإنّ الإنسان كائنٌ مركّبٌ من بُعدين، هما الجسم والروح، وعليه أن لا يُهمل أيّاً منهما مهما كانت الظروف. لكنّ حقيقة الإنسانيّة هي كون الإنسان روحاً مجرّدةً من سنخ خالقه، والبدن هو مطيّة هذه الروح التي لا يمكنها الاستغناء عنه في الحياة الدنيا.

إنّ شرف الإنسان وعظمته يكمنان في نفخ روح الله فيه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[1]، فخلقه في أحسن تقويم وكرّمه وأمر الملائكة بالسجود له: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[2]، ثمّ جعله خلقاً آخر: ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.[3] ومن هذا المنطلق فإنّ النصوص الدينيّة من آياتٍ وأحاديث قد اهتمّت بروح الإنسان وبدنه على حدٍّ سواء، وأكّدت على أنّ كمال ابن آدم يتجلّى في سموّ روحه وانهماكه بالأمور المعنويّة التي تقرّبه إلى بارئه عزّ

(1) سورة الحجر، الآية 29؛ وكذلك سورة ص، الآية 72.
(2) تتمّة الآيتين السابقتين.
(3) سورة المؤمنون، الآية 14.

وجلّ. وهذا التوجّه في الواقع مترسّـخٌ في ذاته وفطرته فيرافقه في رحلته الماديّة إلى عالَم الروح والأزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾[1].

فالإنسـان قـد خُلق من ترابٍ ونُفخت فيه الـروح، ثمّ هبط إلى الأرض واسـتقرّ فيها؛ لكنّه أُمر أن لا يبقى ماديّ الوجود ويظنّ أنّ الدنيا مقرٌّ له، بل يجب عليه أن يبدأ سـيرتَه الروحيّة انطلاقاً من هذا العالم الماديّ وذلك بسعيه الحثيث وعدم استسلامه لملذّات الدنيا وزخرفها، وبالطبع كلّما سار قُدُماً في هذا السبيل وترسّخت في نفسه حقائق إنسانيّته، فإنّ منـزلته سترقى أكثر وأكثر.

حريّة الاختيار

إنّ أهـمّ صـفةٍ تُميّز الإنسـان عن غيره مـن المخلوقات هي إرادتـه، أي قدرته على الاختيار. ونسـتلهم من تعاليمنا الدينيّة أنّ الإنسـان ليس مخيّراً تكويناً وحسـب، بل إنّه مخيّرٌ تشـريعاً أيضـاً؛ إذ لـه الإرادة التامّة فـي تعيين برنامج حياتـه واختيار المنهج الذي يسـلكه، فـدَور الأنبياء والأئمّة عليهم السلام هو توضـيح حقائق الديـن وهداية الناس إلى الصـراط القويم وتحذيرهم من مكائد الشـيطان. قال تعالى في كتابه المجيد: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾[2].

(1) سورة الانشقاق، الآية 6.

(2) سورة الإنسان، الآية 3.

فالأنبياء والرسل عليهم السلام يُرشدون الناس إلى الحقّ، أمّا سلوك هذا الطريق أو الانحراف عنه فمرتبطٌ بالناس أنفسهم، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[1].

وعلى الرغم من اعتراف التعاليم الدينيّة بتأثير بعض العوامل الخارجيّة على شخصيّة الإنسان وحالته النفسيّة، إلا أنّها لا تعتبر ذلك وازعاً لسلب اختياره وإرادته.

الالتزام بالمبادئ وقبول المسؤوليّة

طبق أُصول ديننا الإسلاميّ، فإنّ الإنسان يمتلك الإرادة الكاملة في اختيار طريقه في الحياة، ولكنّه في الوقت ذاته مسؤولٌ عن تصرّفاته وسلوكه وكلّ موقفٍ يتّخذه. قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾[2]. إذن، بما أنّ الإنسان يتمتّع بالقدرة على الاختيار، فهو بالطبع مسؤولٌ عمّا يفعل. فالإنسان ليس مكرهاً على اعتناق الدين وله الإرادة المطلقة في ذلك، ولكن لو اعتنقه بتعقّلٍ والتحق بسلك المؤمنين، عليه أن يلتزم بمبادئه ويعمل بتعاليمه، ولا يحقّ له مخالفة أوامره لأنّه اختار هذا النطاق في الدنيا لكي يحظى بالأُفق الرحب في عالم الآخرة وينال السعادة المنشودة. قال الله عزّ وجلّ في كتابه

(1) سورة الكهف، الآية 29.

(2) سورة الصافّات، الآية 24.

العزيز: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1].

والله تعالى سوف يسأل جميع البشر يوم القيامة عمّا كانوا يعملون، ولا يستثني أحداً أبداً حتّى رسله وأنبياءه عليهم السلام، حيث قال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾[2]. وأكّد على هذه الحقيقة أيضاً في آيةٍ أُخرى قائلاً سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾[3].

خلود الإنسان

من أهمّ ميزات علم الوجود الإنسانيّ الدينيّ أنّه يتضمّن نظرةً منطقيّةً لمسألة بحث الإنسان عن الخلود، وحسب أُصوله فإنّه مخلوقٌ خالدٌ. وهذه الرؤية بذاتها تعدّ وازعاً لتفتّح الأمل لديه وحافزاً لترسيخ روح السعي نحو أُفق السعادة الرحب في نفسه وتجاوز المشاكل التي تعترض طريقه نحو الكمال، وتجعل ذلك من الأمور المحبّبة والمفضّلة في نفسه ولا يخشى حينها الموتَ، بل يعتبره بوّابةً لحياةٍ أزليّةٍ منعّمةٍ قد ادّخر لها ما استطاع في حياته الدنيويّة.

فمبدأ الخلود هو أصلٌ شاملٌ لا يُستثنى منه أحدٌ من

(1) سورة الأحزاب، الآية 36.
(2) سورة الأعراف، الآية 6.
(3) سورة الحجر، الآيتان 92-93.

البشـر. وبالطبع، فإنّ أعمالهم في الحياة الدنيا هي التي تُحدّد مصـيرهم في الحيـاة الآخرة؛ فعاقبتهم إمّـا الخلود في جنّات النعيم ونيل السـعادة الأبديّة، وإمّا الخلود في الجحيم ومكابدة الشقاء الأزليّ.

كمال الإنسان

إنّ ابـن آدم مخلـوقٌ طَموحٌ لا حـدّ لرغباتـه ومتطلّباته، فهو بفطرته يطلب الكمال، وميوله مطلقةٌ لا يُشبعها سوى تطلّعه إلى نعيم جوار ربّه اللامحدود؛ وهذه بطبيعة الحال من مقتضـيات الـروح اللاّمتناهيّـة التي نفخها الله سـبحانه فيـه. لذا، فهو لا يحظى بالسـكينة والطمأنينة الحقيقيّـة إلا بالتقرّب إلى بارئه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

فلو تمتّع الإنسـان بكلّ شـيءٍ وأُتيحت له جميع السُّبل، ولكنّه لم يلتجئ إلى الله تعالى وابتعد عنه؛ فسوف يضلّ عن الصراط القويم ويُبتلى بحياةٍ يشـوبها القلق ويسيطر عليها الاضطراب، كمـا قال جلّ شـأنه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[2].

إنّ الإنسان بطبيعته الذاتيّة وتركيبته الماديّة يميل إلى بارئه عـزّ وجلّ ويرى أنّ كمالـه الحقيقيّ لا يتحقّـق إلا بالتقرّب إليه،

(1) سورة الرعد، الآية 28.

(2) سورة طه، الآية 124.

لأنّه مبدعه ونافخ الروح فيه وسنده في الملمّات والمصائب، لذلك فإنّ التلذّذ بهذا القرب سوف ينتشله من أوهام ملذّات الدنيا الزائلة. فذروة لذّة الإنسان تتحقّق في تقرّبه إلى الله تعالى، وهي القربة التي أكّدها القرآن الكريم ولا يذوق طعمها إلا المؤمنون، إذ يسمو الإنسان من خلالها ويترفّع على نفسه الحيوانيّة وسائر المخلوقات لينعم حقّاً بحياةٍ طيّبةٍ. وأمّا إذا ما ترك ابن آدم نعمة العقل وقوّة الإيمان وانهمك بملذّات الدنيا وشهواته الحيوانيّة والتي هي في حقيقتها فانيةٌ ومزيّفةٌ، فسوف يتحوّل إلى أرذل خلق الله. وقد تمّ التأكيد على هذه الحقيقة في الآيتين التاليتين: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1]، ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾[2].

إنّ الكمال الذي يُحقّق للإنسان السعادة الأزليّة هو هدفٌ مشتركٌ لجميع المدارس الفكريّة، لكنّها تختلف في كيفيّة بلوغه. أمّا حسب مبادئ وأُصول المدرسة الإسلاميّة، فإنّ سعادة الإنسان الحقيقيّة لا تتحقّق إلا بالتقرّب إلى الله سبحانه وتعالى والانصياع لأوامره، وتؤكّد على أنّه مخلوقٌ ذو فطرةٍ سليمةٍ يمكن أن يسلك طريق الهدى الذي يسوقه نحو الكمال الحقيقيّ. وبالطبع، فإنّه يسلك هذا الطريق بقدرته العقلانيّة

(1) سورة الأنفال، الآية 22.

(2) سورة الأنفال، الآية 55.

التـي تُعتبر رسـولاً باطنياً وبمسـاعدة أنبياء الله تعالـى وأئمّته الكرام. فالأنبياء وأئمّة الهدى، وبمساعدة القوى العقليّة الكامنة في الإنسـان، يشذّبون الطاقات الفطريّة الكامنة لديه ويحيونها ليسلك السبيل القويم.

وبعبـارةٍ أُخرى، فـإنّ الهدى هو تشـريعٌ أقـرّه الله تعالى ولا يتحقّق إلا عن طريق حمَلة وحيه والعقل الذي أكرم الإنسـان به، والهدف منه بلوغ الكمال والسعادة الأبديّة.

الإنسان هو محور الخلقة

إنّ الإنسـان هـو الغاية من الخلقة، وقـد مكّنه الله تعالى من التدخّل في عالم التكوين وتسـخير جميع المخلوقات في خدمته لو بلغ الدرجات العُلا وتقرّب إليه.

يقول العلّامة حسن زادة الآملي بهذا الصدد: «إنّ كلّ مَن يتأمّل في قيمة الإنسـان التكوينيّة سيُدرك أنّه معيار كلّ شيءٍ والأساس فـي قيمته، أي أنّ علم الإنسـان وأحاسيسـه هي معيـار كلّ ما هو معلوم ومحسـوس، وأنّ قيمة كلّ مخلوقٍ مرتبطةٌ بوجود الإنسـان وبمدى اسـتثماره لهذا الوجود وبالحضـارة الإنسانيّة بشكلٍ عامٍّ. فالإنسـان هو الذي يطوي طريق العلم بين جميع المخلوقات وفي جميع العوالم والدرجات، ولا حدّ لسيره نحو مقام الرفعة والسموّ، فكلّمـا بلغ درجةً فهو لا يتوقّف فيها بل يعرج إلى درجةٍ أعلى منها فيحظى بصـفات كمال جميـع المخلوقات ويسـيطر عليها، ومن

ثمّ يصل إلى جوار محور الحقيقة ذي الحياة المطلقة والجمال والجلال. ونظراً لما حازه من كمالٍ ومرتبةٍ سامية، سوف يتمكّن بإذن هذا الربّ الجليل من التصرّف في مادّة الكائنات ويصبح سيّداً للبشر وخليفةً لربّه وتكون جميع أفعاله ربّانيّةً»[1].

الإنسان بطبعه كائنٌ لا يتأثّر بما حوله ولا يستسلم له، بل هو الذي يصنع ما حوله ويؤثّر فيه، ويسعى لأن يجعل بيئته الخارجيّة متلائمةً مع أفكاره وتوجّهاته. لذا، لو أصبح صالحاً في ذاته فسوف يكون مصلحاً لما حوله، ولو أنّه أفسد ذاته واتّبع أهواءه سوف يكون منحطّاً ومفسداً لما حوله. فإذا سيطرت شهوته على باطنه وسخّرت عقله ومعرفته للأهواء والنزعات المنحرفة، بالطبع سينعكس ذلك على ظاهر حاله لتكون الشهوات هي الحاكمة على سلوكه وعقله، كما هو الحال بالنسبة إلى تعامله مع الآخرين، حيث يجعل شخصيّته تنسجم مع الآخرين وتتناغم مع توجّهاتهم.

فالله تعالى لم يجعل الإنسان مخلوقاً متقوقعاً ومنزوياً، بل أتحفه بفطرةٍ تشوبها النزعة الاجتماعيّة، كما أنّ جلّ طاقاته وخصاله الكماليّة لا تتحقّق إلا عن طريق ترسيخ صلته بالآخرين. وحسب رؤيتنا الإسلاميّة فإنّ أحد أفضل طرق التقرّب إلى الله تعالى وأكثرها تأثيراً هو إدراك معاناة الآخرين والتقرّب إليهم وإصلاح أُمور المجتمع.

(1) حسن حسن زاده آملي، مئة كلمة في معرفة النفس، الكلمة رقم مئة. (كتاب فارسي)

اجتناب المعاصي والذنوب

حقيقة الذنب

إنّ أهمّ سببٍ لارتكاب المعاصي وانحراف الفرد والمجتمع، هو الغفلة عن حقيقة الذنوب التي هي قُبحٌ محضٌ. وحقيقة الذنب هي التنصّل عن أوامر الله تعالى. فهذه الغفلة تسلب الشعور من الإنسان وتجعله كالجسد الذي لا روح فيه، حيث لا يفقه من إعجاز الوحيّ السماويّ شيئاً، كما وصفه تعالى في كتابه المجيد: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾[1].

ومن جانبٍ آخر، فإنّ الاعتقاد بقبح المعاصي ووخامة نتائجها، يصون الإنسان من ارتكابها ويقوّي فيه الدافع لمقاومة جموح النفس وكبح نزواتها.

حسب تعاليمنا الدينيّة فإنّ الصفات الرذيلة والأعمال القبيحة هي أمراضٌ مهلكةٌ وسموم فتّاكةٌ، حيث حرّمها الله عزّ وجلّ صيانةً لعباده من مفاسدها وعواقبها الوخيمة، لذا يجب على العبد أن يُدرك مدى قبحها ويجتنبها، كما عليه أن يندم لو ارتكبها ثمّ يتوب إلى الله توبةً نصوحاً.

(1) سورة النمل، الآية 80.

معرفة المذنب مقدمة لعلاجه

الإنسان كائنٌ مركّبٌ من جسمٍ وروحٍ، وبالطبع فإنّ روحه تتعرّض لأمراضٍ حالها حال جسمه، لذا يجب عليه أن يحذر من هذا الخطر المحدق به؛ فكما أنّه يبذل قصارى جهده لعلاج داءٍ ألمّ به ولا يغفل عنه كي لا يستفحل ويودي بحياته، كذلك عليه أن لا يغفل عمّا يصيب الروح من أمراض مهلكة. فالروح الإنسانيّة تُبتلى بالذنوب والمعاصي، وبالطبع فإنّ من يلتفت إلى هذا الداء ويُدرك ضرَره سوف يعرف مدى خطورته، وبالتالي سيبحث عن العلاج الذي يُنقذه. وإذا ما ابتُلي الإنسان بصفاتٍ نفسيّةٍ ذميمةٍ، كالبخل والحسد والغضب وحبّ الدنيا، وتحوّلت أفعاله الإراديّة إلى معاصٍ وآثام تجعله يعيش لذّةً وهميّةً لا يشعر معها بألم ويغفل عن عواقبها السيّئة؛ فسوف لا يجد الدافع إلى علاجها والحؤول دون استفحالها. وبالتالي فإنّ هذا المرض الفتّاك سوف يشتدّ يوماً بعد يومٍ ويسوقه نحو المهلكة، لأنّه تنصّل من الأوامر وعطّل مدركاته حاله حال البهيمة التي لا عقل لها، بل أسوأ منها.

لذلك لو أراد الإنسان حفظ سلامة روحه والسيطرة على جموح نفسه الأمّارة، يجب عليه إدراك كلّ ما يدور حوله ومعرفة المخاطر المحدقة به كي يتحقّق في ذاته الدافع لكبحها ويستعدّ لمواجهتها بكلّ ما أُوتي من قوّةٍ، وحتّى يتمكّن في نفس الحين من اتّخاذ الاجراءات اللازمة لعلاجها.

نذكر مثالاً هنا لبيان هذا الأمر بشكلٍ جليٍّ: الإنسان العاقل لا يتناول طعاماً مسموماً مهما كان جائعاً، فيرجّح الصبر ويتحمّل الجوع. ولو أنّه أخطأ وتناول بعضه، فسوف يبذل ما بوسعه للتخلّص من آثاره فور علمه بذلك، حتّى وإن اقتضى الأمر تجرّع مرّ الدواء. ولكنّ مَن يغفل عن ذلك ولا يشعر بسريان السمّ في بدنه، فسوف تستفحل المشكلة ويتضاعف مفعوله شيئاً فشيئاً إلى أن يقضي عليه.

وكذا هو الحال بالنسبة إلى المؤمن الواعي الذي يُدرك الخطر الكامن في استسلامه للغرائز الحيوانيّة والوساوس الشيطانيّة الذي هو أشدّ فتكاً من السمّ المهلك، فيصون نفسه من المنكرات والرذائل، وحتّى إن وقع في الخطأ يوماً وارتكب ذنباً فإنّ النفس اللوّامة ستهيّج فيه الإحساس بالقلق والندم وتحفّزه لأن يبحث عن العلاج ويكافح الشوائب التي هاجمته بأُسلوبٍ منطقيٍّ ومشروعٍ. وحسب الرؤية القرآنيّة، فإنّ أعظم خسرانٍ للإنسان هو قيامه بأفعالٍ قبيحةٍ لا يشعر معها بتأنيب الضمير ولا ألم الذنب حينما يُبتلى بجهلٍ مركّب ويعدّها أفعالاً حسنةً، كما قال جلّ شأنه في كتابه الكريم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[1]. فهكذا شخصٌ هو الأكثر خسراناً بين

(1) سورة الكهف، الآيتان 103-104.

أقرانه، لأنّ مَن يفعل منكراً وبعد ذلك يُدرك قُبح فعلته فسوف يضع حدّاً لعصيانه ولا يدنّس الحرمات بارتكابه مرّةً أُخرى، وقد يتوب توبةً نصوحاً ويُصلح باطنه.

مخاطر الاستخفاف بالذنب

أمّا الأثيم الذي يتهاون في ارتكاب المعاصي ويعتبر إثمه عبادةً ويرى أنّ انحرافه استقامةٌ فهو في الحقيقة يخوض غمار أسوأ أنواع البلاء ولا يكبح جموحه شيءٌ، حيث يُفسد حياته ويهدر كلّ فرص النجاة. وقد وصف الإمام عليّ عليه السلام الاستخفاف بالذنوب في عبارةٍ وجيزةٍ حين قال: «**أشَدُّ الذُّنوبِ ما استخَفَّ بهِ صاحِبُهُ**»[1]. وأشار في موضعٍ آخر إلى أنّ أعظم الذّنوب هو جهل الإنسان بقبح المعاصي وغفلته عن انحرافه، فالغفلة عن العيوب تسلب منه الدافع لاجتنابها واجتثاثها؛ فقال: «**جَهلُ المرءِ بعيُوبهِ مِن أكبَرِ ذُنوبهِ**»[2]. كما قال الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام: «**إيّاكَ والابتِهاجَ بالذَّنبِ، فإنَّ الابتِهاجَ بهِ أعظَمُ مِن رُكُوبهِ**»[3].

وقال معلّم الأخلاق السيّد الإمام الخميني رحمه الله مخاطباً طلّاب العلوم الدينيّة: «لا قدّر الله أن يُبتلى الإنسانُ بأمراضٍ لا يشعر بآلامها، فالأمراض المؤلمة تدعوه لأنْ يسعى لعلاجها،

(1) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الحكمة رقم 476.
(2) محمّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار، ج75، ص91.
(3) المصدر السابق، ص159.

فيراجع طبيباً أو مركزاً صحيّاً، بيد أنّ المرض الخفيّ الذي لا يرافقه ألمٌ، مرضٌ خطيرٌ لا ينتبه إليه الإنسان إلا بعد استفحاله وفوات الأوان»[1].

فيا ابن آدم عليك اجتناب المعاصي واتّباع حكم العقل بعد الاستعانة بالله تعالى. ولو ارتكبت ذنباً فلا يخدعك كيد الشيطان وتأخذك العزّة في الإثم وتبرّر فعلتك الشنيعة؛ فكم من إنسانٍ هلك بعد أن وقع في حبائل الشيطان! وقد حذّرنا الباري عزّ وجلّ من ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾[2]. كما نبّهنا تعالى إلى أنّ فرعون طغى واستكبر بعد أن زيّن الشيطان له سوء عمله، حيث قال: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾[3].

واعلم أنّ تمييز العمل الطيّب من الخبيث هو أهمّ سببٍ لعصمة أنبياء الله تعالى وأوليائه الصالحين، وهو الركيزة الأساسيّة للتقوى والعدل لدى كلّ مؤمنٍ ومعلّمٍ يستفيض الخلق من حكمته. فقد أدرك هؤلاء الأخيار مدى قُبح المعاصي وعواقبها الوخيمة، وأيقنوا أنّ سلوك طريق السعادة لا يتحقّق بمعصية الربّ التي تنهك العبد وتزلزل قواه؛ لذلك لم يستسلموا لوساوس الشّيطان وحصّنوا أنفسهم من الذنوب ظاهرها وباطنها.

(1) الإمام الخمينيّ رَحِمَهُ اللهُ، الجهاد الأكبر أو جهاد النفس. ص52.
(2) سورة الأنفال، الآية 48.
(3) سورة غافر، الآية 37.

ذكر الله تعالى

معرفة الله أساس الهدى

إنّ العبد لو أراد النجاة من قيود الضلال والخلاص من سلطة الشيطان، فلا بدّ له من عبادة ربّ الأرباب حقّ عبادته والصمود أمام عدوّه اللّدود بكلّ عزمٍ وإحباط محاولاته عبر اللّجوء إلى الله تعالى. فالتقرّب إلى الباري عزّ وجلّ هو هدف الإنسان الفطريّ وغايته الأولى، إذ لو عرف ربّه حقّ معرفته وأوكل النفس إليه فلا شيء سيؤثّر عليه أو يسحر قلبه حينها. وبالطبع فإنّ أهمّ سببٍ لرغبة العبد بالماديّات وانجراره وراء الضلال، يكمن في الغفلة عن ذكر الله تعالى؛ لذا فإنّ الركيزة الأساسيّة للأخلاق الإسلاميّة هي معرفة الله تعالى والأُنس بذكره.

رُوي أنّ إنساناً بسيطاً وقع في حبّ ابنة السلطان، ولكنّه لم يجرؤ على التقدّم لخطبتها بسبب الفارق الطبقي الشاسع بينهما، فاضطرّ لأن يفاتح أحد الوزراء بما يجول في خاطره. فقال له الوزير: إنّ السلطان يحبّ الزاهدين والعُبّاد، لذلك

اعتكف في معبدٍ وتظاهر بالزهد والورع، حيث سـأطلب منه أن يـزورك. فإذا زارك لا تسـتقبله بحفاوةٍ، بل حَيّـه كما تُحيّي أيّ إنسـانٍ آخر، ثمّ انهمك بالصلاة والعبادة. بعد الصلاة سيُصرّ عليك لأن تطلب منه شـيئاً، لكنّك في بادئ الأمر لا تطلب شيئاً. ثمّ سيُلحّ عليك أكثر، فاقبل طلبه متظاهراً بغناك فيما لديه وقل لـه إنّك من داعي حبّك له ترغب في مصـاهرته وكأنّه قد أُلهِم إليك ذلك. بعد ذلك سـأتولّى الأمر بنفسـي وأُقنعه بأن يزوّجك ابنته.

وبالفعل، نُفّذت الخطّة ولكن عندما جاء السلطان إلى المعبد لـم يُعره الناسـك المزيّـف أهميّـةً وانهمك في أداء الصـلوات واحدةً تلو الأُخرى، فاسـتاء السـلطان من تصـرّفه وقفل عائداً إلى قصره.

إثـر ذلك أنّب الوزير هذا الرجل لسـلوكه وسـأله عن سـبب ذلـك، فأجابه: عندما سـجدت أوّل سـجدةٍ تبادر إلـى بالي أنّ سـجدةً كاذبةً لا هدف منها سـوى الرياء جعلت سلطاناً ينحني أمام إنسـانٍ بسـيطٍ؛ فيا تُرى ماذا تفعل السـجدة الخالصة لله تعالـى؟! لذلك أحسسـت بلذّةٍ بين يدي الله تعالـى أيقنت معها أن لا حاجـة لـي معها إليك أو إلى سـلطانك وابنته، فقد وجدت معشوقي الأوحد الذي أسر قلبي وكلّ جوارحي.

هذه القصّـة بغضّ النظر عـن كونها واقعيّةً أو نسـج خيالٍ،

نستوحي منها أنّ محبّة الله تعالى تُغني القلب عن محبّةِ أيّ مخلوقٍ آخر وتجعل العبد غنيّاً عن الخلق طُرّاً.

يقول الأستاذ الشهيد مرتضى المطهّري رَحِمَهُ اللهُ: «إنّ معرفة الله تعالى ليست أصل الدّين وحسب، بل هي أساس ومحور الإنسانيّة؛ إذ لو أُريد للإنسانيّة أن تترسّخ على دِعامةٍ ما فلا بدّ أن لها تترسّخ على أصل التوحيد.

إنّ معرفة الله تعالى هي أصل كلّ أمرٍ معنويٍّ، لذا لا يمكن تجاهل المعنويّات ولا تجاهل أصل الدين ومنبعه، أي لا يمكن في الحقيقة الفصل بين القضايا المعنويّة ومعرفة الله تعالى، وكذلك لا يمكن الفصل بين معرفة الله تعالى وسقوط الإنسان باتّباعه نزواته الحيوانيّة وسعيه وراء الماديّات ونهمه في الحياة الدنيا.

فالإنسان إمّا أن يكون عبداً لله وإمّا أن يكون عبداً للمادّة المتجسّدة في بطنه وشهواته ومقامه وماله؛ ولا خيار ثالث له»[1].

إنّ أساس الهدى يكمن في معرفة الله تعالى وتوحيده، ودونهما لا يمكن ترسيخ دعائم النظام الإسلاميّ على جميع المستويات، أخلاقيّة أو تربويّة أو غيرها. فإيمان الإنسان بالله تعالى وإذعانه بأنّه مدبّرُ كلّ شيءٍ ومسيطرٌ عليه وأنّه محيطٌ بجميع حركات الخلق وسكناتهم، وكذلك إذعانه بأنّ الله هو

(1) الشهيد مرتضى المطهّريّ، مجموعة آثار (باللغة الفارسيّة)، ص68 و69.

الـرزّاق ولا رازق غيـره ويقينه بأنّه تعالى راضٍ عنـه؛ كلّها أُمورٌ تُرسّخ في نفسه الدافع لإصلاح سلوكه وتمنحه القدرة على نظم أُمور دينه ودنياه لينال السعادة المنشودة.

ذكر الله هو الهدف

رُوي أنّ العلّامـة محمّد حسـين الطباطبائيّ رحمه الله صـاحب كتاب (الميزان في تفسير القرآن) عندما أتمّ دروسه في الحوزة العلميّة في النجف الأشـرف وعزم على العودة إلى إيران، قصد أُسـتاذه المرحوم آية الله السـيّد عليّ القاضي وسأله النصيحة بعد أن انهمك عقداً كاملاً في تحصيل العلوم الدينيّة وطلب منه أن يعلّمه عملاً يهديه ويضـمن له السعادة. فقال له: واظب على قراءة الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾[1].

وبالفعـل، فـإنّ نقطة البداية في سـير الإنسـان نحو الكمال تكمـن في عدم غفلتـه عن واقع مبدئـه ومعـاده ومواظبته على ذكـر خالقه تعالـى، وبالطبع فـإنّ الذّكر هو أقـوى حافزٍ للفرد والمجتمع لسـلوك الصـراط المسـتقيم وهو الهدف من جميع التعاليـم الدينيّـة. فالعبادات والتكاليف الشـرعيّة في حقيقتها ذكرٌ لله تعالى، ونسـتلهم من القرآن الكريم والأحاديث الكريمة أنّه لا عمل يُضاهي ذكره عزّ وجلّ، وأنّ جميع الأعمال الصالحة هـي مقدّمةٌ لذلك. والصـلاة التي وُصـفت بأنّهـا عمود الدين،

(1) سورة العلق، الآية 14.

هي وسيلةٌ لذكر الله تعالى، حيث قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]. كما قال عزّ شأنه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾[2]. كما قال رسول الله ﷺ في هذا الصدد: «**ليسَ عملٌ أحبَّ إلى اللهِ ولا أنجَى لِعبدٍ مِن كلِّ سيّئةٍ في الدُّنيا والآخرةِ مِن ذِكرِ اللهِ**»، فقيل له: ولا القتال في سبيل الله؟! قال ﷺ: «**لَولا ذِكرُ اللهِ لَم يُؤمَر بالقِتالِ**»[3].

فالكثير من الآيات والأحاديث قد أكّدت على ضرورة الإكثار من ذكر الله تعالى، وذلك نظراً لعظمته ودَوره في تعيين مصير العبد، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾[4]. وقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾[5]. كما وصف عزّ وجلّ عبادَه الصّالحين بأنّهم لا يغفلون عن ذكره، حين قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾[6]. وكذلك قال رسول الله ﷺ: «**اذكُرْ اللهَ عندَ همِّكَ إذا هَمَمتَ وعندَ لسانِكَ إذا حَكمتَ وعندَ يدِكَ إذا قسَمْتَ**»[7].

(1) سورة طه، الآية 14.
(2) سورة العنكبوت، الآية 45.
(3) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج3، ص405.
(4) سورة الأحزاب، الآية 41.
(5) سورة الجمعة، الآية 10.
(6) سورة آل عمران، الآية 191.
(7) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج3، ص424.

ورُوي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «ما من شيءٍ إلا وله حدٌّ يُنتهَى إليه، إلا الذِّكر فليسَ لهُ حدٌّ يُنتهَى إليه».

فرضَ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ الفرائضَ، فمَن أدّاهُنَّ فهو حدّهنّ، وشهرُ رمضانُ فمَن صامَهُ فهو حدّهُ، والحجُّ فمَن حجَّ فهو حدّهُ؛ إلا الذّكر، فإنّ اللّٰه عزَّ وجلَّ لَم يرضَ مِنهُ بالقليلِ ولَم يجعلْ لهُ حدّاً يُنتهَى إليه.

ثُمّ تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾. وقال: لَم يجعلْ اللّٰه عزَّ وجلَّ لهُ حدّاً يُنتهَى إليه»[1]. كما قال عليه السلام في موضعٍ آخر: «فأكثِرُوا ذكرَ اللّٰهِ ما استطعتُمْ في كلِّ ساعةٍ مِن ساعاتِ اللّيلِ والنهارِ، فإنّ اللّٰه أمرَ بكثرةِ الذِّكرِ، واللّٰهُ ذاكرٌ لِمَن ذكرَهُ مِن المؤمنينَ. واعلَموا أنَّ اللّٰه لَم يَذكرْهُ أحدٌ مِن عبادِهِ المؤمنينَ إلا ذكَرَهُ بخيرٍ»[2].

وأشار بعض الأحاديث إلى أنّ ذكر اللّٰه تعالى ثروةٌ عظيمةٌ وأمانٌ للإنسان من وساوس الشيطان، كما قال الإمام عليّ عليه السلام: «ذِكرُ اللّٰهِ مَطرَدةُ الشّيطانِ»[3]. وقال في موضعٍ آخر: «ذِكرُ اللّٰهِ رأسُ مالِ كلِّ مؤمنٍ وربحُهُ السّلامةُ مِن الشَّيطانِ»[4].

ومن مواعظ النبيّ يحيى عليه السلام قوله: «وآمُرُكُمْ أنْ تَذكُروا

(1) محمّد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، ج2، ص498.
(2) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج4، ص183.
(3) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة،ج3، ص420.
(4) المصدر السابق.

اللهَ، فإنَّ مَثَل ذلكَ كَمَثَلِ رجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أثَرِهِ سراعاً حَتّى إذا أتَى على حِصنٍ حَصينٍ فأحرَزَ نفسَهُ مِنهُمْ، كذلكَ العبدُ لا يُحرزُ نفسَهُ مِن الشَّيطانِ إلا بِذِكرِ اللهِ»[1].

حقيقة الذِّكرِ

إنّ ذكر اللّه تعالى يحظى بأهميّةٍ بالغةٍ في نصوصنا الدينيّة من آياتٍ وأحاديث، فهو أساس التكاليف الدينيّة وهدفها السامي؛ وبالطبع فإنّ فوائده لا نظير لها ولا يمكن حصرها بكلماتٍ. فالذكر هو توجّهٌ قلبيٌّ إلى اللّه تعالى ويقينٌ به. والذكر هو اعتقادٌ باطنيٌّ بولاية اللّه تعالى وتدبيره وإحاطته بأعمال الإنسان وأفكاره كافّةً. وبالتأكيد فإنّ ترويض اللّسان على ذكر اللّه عزّ وجلّ ليس سوى وسيلةٍ لإدراك حقيقة الذِّكر لاحقاً.

وحسب تعاليمنا الدينيّة فإنّ الذكر يُقابل الغفلة والنسيان، ولا بدّ للإنسان في جميع حركاته وسَكَناته أن يطيع اللّه تعالى ويسعى لذكره ويعبده حقّ عبادته. وقد بيّن رسول اللّه ﷺ حقيقة الذّكر بقوله: **«مَن أطاعَ اللهَ فقدْ ذكرَ اللهَ، وَإنْ قَلَّتْ صَلاتُهُ وَصِيامُهُ وَتِلاوَتُهُ للقُرآنَ؛ وَمَن عصَى اللهَ فقدْ نَسِيَ اللهَ وَإنْ كثُرَتْ صَلاتُهُ وَصِيامُهُ وَتِلاوَتُهُ للقرآن»**[2]. قال العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ بعد نقله هذا الحديث: «في الحديث

(1) المصدر السابق، ج9، ص62.

(2) المصدر السابق، ج3، ص425.

إشارةٌ إلى أنّ المعصية لا تتحقّق مِن العبد إلا بالغفلة والنسيان، فإنّ الإنسان لو ذكر ما حقيقة معصيته وما لها من الأثر، لم يُقدم على معصيتهِ، حتّى أنّ مَن يعصي اللّه ولا يبالي إذا ذُكِّر عند ذلك باللّه، ولا يعتني بمقام ربِّه هو طاغٍ جاهلٌ بمقام ربِّه وعلوِّ كبريائه وكيفيّة إحاطته، وإلى ذلك تشير أيضاً روايةٌ أخرى في الدُّرِّ المنثور عن أبي هندٍ الداريّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «قالَ اللّهُ اذكُروني بطاعَتِي أذكركُمْ بمغفِرَتِي، ومَن ذكَرَني وهو مُطِيعٌ فحَقٌّ علَيَّ أنْ أذكُرَهُ بمغفِرَتِي، ومَن ذكَرَني وهو عاصٍ فحَقٌّ علَيَّ أنْ أذكُرَهُ بِمَقْتٍ الحديث، وما اشتمل عليه هذا الحديثُ من الذِّكر عند المعصيةِ هو الذي تُسمِّيه الآيةُ وسائر الأخبار بالنسيان لعدم ترتّبِ آثارِ الذِّكرِ عليه»[1].

ورَوى الحسين البزّاز أنّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال له: «ألا أُحدِّثُكَ بأشدِّ ما فرضَ اللّهُ عزَّ وجلَّ على خلقِهِ؟!»

فقال البزّاز: بلَى.

فقال عليه السلام: «إنصافُ النّاسِ من نفسِكَ، ومُواساتُكَ لأخِيكَ، وذِكْرُ اللّهِ فِي كُلِّ مَوطِنٍ، أمّا إنِّي لا أقولُ سُبحانَ اللّهِ والحمدُ للّهِ ولا إلـهَ إلا اللّهُ واللّهُ أكبرُ، وإنْ كانَ هذا مِن ذاكَ؛ ولكن ذِكرُ اللّهِ فِي كُلِّ مَوطِنٍ إذا هجَمْت علَى طاعَتِهِ أو مَعصِيَتِهِ»[2].

(1) محمّد حسين الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج1، ص342.

(2) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج3، ص425.

وقد نهى الإمام عليّ عليه السلام عن ذكر الله تعالى باللّسان فقط، لأنّ الذّكر في حقيقته يعني الإعراض عن أهواء النفس ونزواتها قولاً وفعلاً، لذا أمر بوجوب انسجام الباطن مع الظاهر، حيث قال: «**لا تَذكُرْ اللهَ سُبحانَهُ ساهياً ولا تَنْسهُ لاهياً، واذكُرْهُ كاملاً يُوافِقُ فيهِ قلبُكَ لسانَكَ ويطابِقُ إضمارُكَ إعلانَكَ، ولنْ تَذكُرَهُ حقيقةَ الذِّكْرِ حَتَّى تَنْسَى نفسَكَ فِي ذِكرِكَ وتفقِدُها فِي أمرِكَ**»[1].

إنّ الذِّكر هو فيضٌ نورانيٌّ يغمر كيان الإنسان وانقطاعٌ قلبيٌّ لبارئ الخلائق أجمعين ومدبّر الكون وما فيه، حيث ينتاب الذّاكر شعورٌ بأنّ الله موجودٌ أينما ولّى وجهَه وأنّ عِنانه ليس مطلقاً ليفعل ما يحلو له. كما أنّ الذِّكر يزرع في نفسه الحياء من ارتكاب المعاصي. ونظراً لهذه الأهميّة، نلاحظ أنّ القرآن الكريم في ما يقارب ثلاثمئة موضعٍ، قد نبّه العباد إلى أنّ الله تعالى مشرفٌ على عباده في كلّ آنٍ ومكانٍ، وأنّه محيطٌ بأقوالهم وأفعالهم وحتّى همهمات نفوسهم ولا يخفى عنه شيءٌ صغيراً كان أم كبيراً ، لذا يجب عليهم أن لا يغفلوا عن ذكره ولا يَعصوه ما داموا أحياءاً.

والذِّكر في حقيقته مقامٌ له مراتبٌ يفوق بعضها بعضاً، إذ يبدأ من الذِّكر اللّفظيّ ويتدرّج حتّى يبلغ مرتبة الانقطاع الكامل

(1) عبد الواحد التميميّ الآمديّ، غرر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص188.

في عالم الشـهود حيـث يفنى العبد حينها فـي ذات الله تعالى. فمهما انقطع العبد لبارئه ولم يتعلّق بغيره، سوف يحظى بمرتبةٍ أعلـى مـن مراتب الذِّكـر والرياضـة الروحيّة حتّـى يبلغ مرتبة الشهود التي لا يبلغها إلا من انقطع عن الدنيا وملذّاتها الزائلة. ففي هذه المرتبة تُرفع الحُجُب وتُزاح الظُّلُمات ولا يرى السالك حينها سـوى ربّ الأرباب ولا يرجو سواه مطلقاً؛ فلذّته الحقيقيّة التـي لا تُضـاهيها لذّةٌ هي ذكـر الله تعالى وبهجتـه في التقرّب إليه لا تُوصـف، فتصـبح أقواله وأفعاله طاعةً محضـةً وعبوديّةً خالصةً، ويستغفر الله من كلّ ما هو ليس بذكرٍ، فيناجيه قائلاً: «أَستغفِـرُكُ مِن كلِّ لَذَّةٍ بغَيرِ ذِكـرِكَ ومِن كلِّ راحةٍ بغَيرِ أُنسِكَ ومِن كلِّ سُرورٍ بغَيرِ قُربِكَ ومِن كلِّ شُغلٍ بغَيرِ طاعتِكَ»[1].

فالذِّكر لا يتحقّق إلا بالانقطاع التامّ إلى الله تعالى، حيث يرى العبدُ ربَّه أينما حلّ ونزل ويُدرك حينها أنّ كلّ صـغيرٍ وكبيرٍ في الكون هو آيةٌ من آياته عزّ وجلّ وبرهانٌ على وجوده. وقول سـيّد الموحّديـن ومولى العارفين عليّ بن أبي طالب عليه السلام خير دليلٍ على ذلك: «ما رَأيتُ شَيئاً إلّا ورَأيتُ اللهَ معَهُ وقبلَهُ وبعدَهُ»[2].

وبالطبـع فـإنّ قلب الإنسـان هو مركـز الذِّكـر ومنطلقه في أفعالـه وأقوالـه، ولا يَطهُـر من الشـوائب إلا إذا خلُـص ممّا لا يرتضـيه الله تعالـى، حيث أكّـد الإمام جعفر الصـادق عليه السلام

(1) الشيخ عبّاس القمّي، مفاتيح الجنان، المناجات الخمس عشرة، مناجاة الذّاكرين.
(2) مسند الإمام علي، ج18، ص8.

هذه الحقيقة بقوله: «القَلبُ حرَمُ اللهِ، فَلا تُسكِنُ حرَمَ اللهِ غيرَ اللهِ»[1]. كما جاء في الحديث القدسيّ: «لَم تَسَعنِي أرضِي ولا سَمائي، ووسِعَنِي قلبُ عبدِيَ المؤمِنُ»[2].

فيا طالب السعادة، لا تغفل عن ذكر ربّك وأجهد نفسك في ذلك، فإنّك ستتذوّق حلاوته وتنعم ببركته، وستدرك حينها أن لا شيء يُضاهي لذّته. اللّهُمَ ارزُقنا حَلاوَةَ ذِكرِكَ واجعَلنا مِن أهلِهِ.

ثمار ذكر الله تعالى

إضافةً إلى الدّور التربويّ لذكر الله تعالى وتأثيره الكبير في كبح هوى النفس وطغيانها، كذلك له ثمارٌ أُخرى تُبيّن مدى أهميّته في تعاليمنا الدينيّة إذ يُعدّ أفضل دافعٍ يسوق الإنسان نحو الخلوص في العبادة وبلوغ الهدف المنشود. ونذكر فيما يلي بعض أهمّ ثمار ذكر الله تعالى بإيجازٍ:

1- الذاكر ينعم بلطفٍ من الله تعالى

إنّ القرآن الكريم هو كتاب هدىً للخلق كافّةً، ولكنّ هدايته أهل التقوى شيءٌ آخر. فجميع البشر هم خلق الله تعالى، ولكنّ أصحاب الدرجات الرفيعة من ذوي النفوس المطمئنّة والهِمَم العالية ينعمون بعبوديّةٍ لا يذوق طعمها غيرهم؛ لأنّ الله عزّ وجلّ

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص25.
(2) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء، ص26.

يُكـرم خلقه قاطبةً ويغدق عليهم النِّعم، وكذلك يُولي أهل الذِّكر من عباده لطفاً خاصّـاً ويفيض عليهم ببركاتٍ إكراماً لهم، لأنّه لا ينسـى مَـن ذَكره حيث قـال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾[1]. كما رُوي هذا الحديث القُدسيّ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**يا ابْنَ آدمَ، اذكُرنـي فِـي نَفسِكَ أذْكُرْكَ فِي نفسِي؛ يـا ابْنَ آدمَ، اذكُرنِي فـي خَلأ أذكُـرْكَ في خَلأ؛ يابْنَ آدمَ اذكُرنِي فِي مَلأ أذكُرك فِي مَـلأ خَيـر مِن مَـلإِكَ**». ثمّ قال عليه السلام: «**ما مِـن عبدٍ يذكُرُ الله فِي مَلأ مِن النّاسِ إلّا ذكَرَهُ اللهُ فِي مَلأ مَن الملائكَةِ**»[2].

ولا ريـب في أنّ غفلة العبد عن ذكـر بارئه تحرمه من لطفه وهُداه، بل سينجرف في موج النسيان كما عبّر عن ذلك القرآن الكريـم فـي الآيـة الكريمـة: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾[3]، والآيـة الكريمة: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾[4].

2- ذكر الله سكينةٌ للقلوب

لقـد خلـق اللّه تعالى الإنسـان وجعله محتاجـاً إليه بحيث لا يشـعر بالسـكينة والأمـان إلا إذا تقرّب إليه، وجعـل قلبَه لا يبلّ ظمأه إلّا بذكره، وفطره على الاتّصال به وتسليم زمام أُموره إليه لكي ينال السعادة وينجو من المهالك، إذ وهبه نفساً لا تستسلم

(1) سورة البقرة، الآية 152.
(2) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج7، ص159.
(3) سورة التوبة، الآية 67.
(4) سورة الحشر، الآية 19.

إلى المصاعب ولا تخضع أمام الخشية من خسارة شيءٍ ولا تنبهر بزيف الآثام والمعاصي. لذلك فإنّ العبد لو تمتّع بجميع الإمكانيّات الماديّة وحُرم فيض ذكر الله تعالى، سوف لا ينعم بالراحة والطمأنينة وسينتابه القلق والاضطراب. قال تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1]. وأكّد عزّ وجلّ على أنّ ذكره دواءٌ لكلّ داء وطمأنينةٌ للقلوب حين قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[2].

والحقيقة أنّ الاضطرابات النفسيّة وعدم الشعور بالطمأنينة هي أهمّ المشاكل التي يواجهها الإنسان في العصر الحديث، حيث لم يتمكّن من تجاوزها رغم بلوغه أرقى درجات التطوّر. وبالطبع فإنّ العبد مهما ابتعد عن ربّه وانهمك بالماديّات فسوف تستفحل هذه المشاكل وتتجذّر في نفسه، لأنّه غفل عن هدفه الأصيل وانشغل بقضايا تافهةٍ لا تمنحه الطمأنينة.

ونستوحي من أحاديث المعصومين عليهم السلام أنّ ذكر الله تعالى حياةٌ للقلوب ونورٌ للعقول ونجاةٌ من كلّ مكروهٍ، وبالتأكيد فإنّ الإعراض عنه يميت القلوب ويعطّل العقول ويودي بالإنسان في المهالك. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**بِذكرِ اللهِ تُحيَى القُلوبُ**

(1) سورة طه، الآية 124.

(2) سورة الرعد، الآية 28.

ونسيانُهُ مَوتُها»[1]. وقال أمير المؤمنين وسيّد الموحّدين عليه السلام: «الذِّكرُ نورُ العُقولِ وحَياةُ النُّفوسِ وجَلاءُ الصُّدورِ»[2]. كما قال عليه السلام في موضعٍ آخر: «اذكُروا اللهَ ذِكراً خالِصاً تَحيُوا بِهِ أفضلَ الحياةِ وتسلُكوا بِهِ أفضلَ طُرُقِ النّجاةِ»[3]. وجاء في الحديث القُدسيّ: «يا مُوسَى، لا تَنسَنِي عَلَى كُلِّ حالٍ، فَإنَّ نِسيانِي يُميتُ القلبَ»[4].

3- ذكر الله تطهيرٌ للقلب من النِّفاق

لا يختلف اثنان في أنّ النّفاق مرضٌ مهلكٌ يفتك بالفرد والمجتمع على حدٍّ سواء. وبالطبع، فإنّ أنجع علاجٍ له هو الانقطاع إلى الله تعالى والإيمان بأنّه مشرفٌ على كلّ شيءٍ ولا يخفى عنه أمرٌ مطلقاً. وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا العلاج الناجع بقوله: «مَن ذكرَ اللهَ كثيراً كُتبتْ لهُ بَراءَتانِ، بَراءَةٌ مِن النّارِ وبَراءَةٌ مِن النِّفاقِ»[5]. كما تطرّق الإمام عليّ عليه السلام إلى ذلك قائلاً: «مَن أكثَرَ ذِكرَ اللهِ فقَدْ بَرِئَ مِن النِّفاقِ»[6].

فذكر الله سبحانه وتعالى لا يطهّر قلبَ الإنسان من النّفاق وحسب، بل يهبه بصيرةً ويحفظه من مهاوي الانحراف

(1) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج3، ص417.
(2) المصدر السابق.
(3) المصدر السابق.
(4) المصدر السابق، ص431.
(5) الشيخ الكليني، أُصول الكافي، ج2، ص500.
(6) المصدر السابق، ص431.

والضلال، فيصبح مؤمناً مُسدّد الخُطى نحو المعرفة والصّلاح. وقد وصف عزّ وجلّ الذّاكرين في كتابه الكريم بالمبصرين حين قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[1].

4- الله يَذكرُ مَن ذَكره

لو أخلص العبد نيّته لبارئه جلّ شأنه ولم يغفل عن ذكره، فسوف لا يقهره شيءٌ ولا يقع في حبائل الدُّنيا ومكائدها؛ لأنَّ الله تعالى هو حافظه ومؤنسه. وفي هذا الصدد، نقل العلّامة المجلسيّ رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديث القدسيّ: «**أيُّما عبدٍ أطّلعتُ على قلبهِ فرَأيتُ الغالبَ عليهِ التّمَسُّكَ بذِكري، تَولَّيتُ سياسَتَهُ وكُنْتُ جَليسَهُ ومُحادِثَهُ وأنيسَهُ**»[2]. وقال تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[3].

فالقلب المفعم بذكر الله تعالى يصمد أمام المصائب والملمّات ولا يخفق في مكافحتها، وهو عزّ وجلّ قد أمر عباده بالصمود أمام الأعداء وعدم الغفلة عن ذكره، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾[4]. وكذلك أكّد الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ على

(1) سورة الأعراف، الآية 201.
(2) محمّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار، ج90، ص162.
(3) سورة العنكبوت، الآية 69.
(4) سورة الأنفال، 45.

هـذا الأمر بقوله: «إذا لَقيتُمْ عَدوَّكُم فِي الحـربِ فَأَقِلُّوا الكَلامَ وأكثِروا ذِكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ»[1].

والحـقّ أنّ الإيمان بـاللّه تعالى وذكره قبـل مكافحة الأعداء يرفع من معنويّات المجاهد في سـبيله ويحفّزه على مقارعتهم، وبالتالي يشدّ على أيديهم لتحقيق النصر المؤزّر.

5 - ذكر الله يُخفّف من وطأة النوائب

يواجه ابن آدم في حياته شـتّى أنواع المشاكل، ويؤرّقه الكثير مـن الملمّـات والنوائب، وبالطبـع فإنّه لا يتمكّن مـن مواجهتها وإزاحتها عن طريقه ما لم يتمتّع بقدرةٍ تُتيح له ذلك وتزرع الثقة فـي نفسـه بأنّه غير عاجزٍ. لـذا نلاحظ أنّ المحـروم من نعمة الإيمـان باللّه تعالى لا يصـمد في المواقف الحرِجة ولا يحسـن التعامل مع المشـاكل، لأنّه ضـعيفٌ فـي اتّخاذ أيّ قـرارٍ. ولكنّ المؤمن الـذي أكرمه تعالى بذكره فهو كالجبل الباسـق الذي لا تزعزعه الأعاصـير مهما عظمت ولا يستسلم لأيّة نائبةٍ تعتريه، ولا سـيّما تلك التي تعترض طريقه نحو هدفه الأسمى ومحبوبه الأوحـد، حيـث يُدرك كُنه ألطـاف بارئه ويطرب لمـا يعاني في طاعته ويتحمّل كلّ ما يواجه وكأنّه يلعق الشهد المصفّى.

وإمامنا الحسـين بن عليّ عليه السلام سيّد شباب أهل الجنّة خير مثـالٍ علـى ذلك، ففـي أحلك السـاعات وأشـدّ النوائب عندما

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج5، ص42.

ارتكب أعداء الله أبشع الجرائم بحقّ أهله وصحبه والتي يندى لها الجبين، بحيث لم يرحموا حتّى طفله الرّضيع وذبحوه من الوريد إلى الوريد، نراه صابراً محتسباً في ذات الله تعالى، وقال: «هَوَّنَ عَلَيَّ ما نَزَلَ بِي أنَّهُ بِعَينِ اللهِ»[1].

6- الحياة الحرّة الكريمة تتجسّد في ذكر الله تعالى

إنّ ارتباط العبد بربّه يعني ارتباطه بمنبع الخير والبركة الذي لا ينضب معينه. ولا شكّ في أنّ هذا الارتباط الحرّ الذي لا يتحقّق إلا بإرادة الإنسان هو أهمّ وسيلةٍ للنجاة من وساوس الشيطان الرجيم والخلاص من مكائده. ومَن يجد ضالّته ويعرف معبوده الأوحد ويوقن بأنّه أساس كلّ خيرٍ ومنشأ كلّ بركةٍ ويرتبط به بصدقٍ وإخلاصٍ، فسوف لا يسحر قلبه أحدٌ ولا يستقطب فكره شيءٌ أبداً. فحريّة الإنسان الواقعيّة لا تتحقّق إلا بعبادة بارئ الخلائق أجمعين وعدم الغفلة عن ذكره في جميع الأحوال، وكذلك لا يمكن طرد الشيطان عن ميدان النفس إلا بالعبادة.

ولو ظنّ العبد أنّ الحريّة مطلقةٌ وأرخى العنان لنفسه الجامحة ولم يكبح شهواته الحيوانيّة، فسوف يبتعد عن عبوديّة بارئه ويتحوّل إلى بهيمةٍ لا همّ لها سوى بطنها وشهوتها، حيث يفقد إنسانيّته وعقله وحريّته الحقيقيّة. وحسب تعالمينا الدينيّة فإنّ هذه الحريّة هي في الحقيقة استكبارٌ وعبوديّةٌ للشّيطان والماديّات.

(1) . بحارالانوار، ج45، ص 46.

الكثير من نصوصنا الدينيّة قد بيّنت لنا أهميّة ذكر الله تعالى وآثاره الحميدة التي لا يسعنا المقام هنا لبيانها بالتفصيل. فمن فوائد الذِّكر: تنعّم الذّاكر بأرقى الملذّات وفوزه بمحبّة خالقه جلّ وعلا وبلوغه أسمى درجات التضرّع والدعاء، كما أنّ الله تعالى يُعزّه ويرفع من شأنه لأنّ الذِّكر أفضل الأعمال، وهو بداية تكامل الإنسان وأُنسه بمعبوده الذي يشرح صدره ويقوّي إرادته ويُشذّب سلوكه.

العقبات التي تعترض طريق الذِّكر

في ختام هذا البحث نشير إلى أهمّ العقبات التي تعترض طريق العبد وتحول بينه وبين ذكر الله تعالى، علّنا نتمكّن من إزاحتها. ولا ريب في أنّ تلك العقبات كثيرةٌ، إلا أنّ أساسها إبليس وجنوده الذين لا يدّخرون جهداً لقطع السبيل على ابن آدم كي ينحرف عن طريق الحقّ ويغفل عن ذكر ربّه بكرةً وأصيلاً. ويمكن القول إنّ أهمّ تلك العقبات هي ما يلي:

1- الشّيطان

قال تعالى في كتابه المجيد وقوله الحقّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[1].

فهذا العدوّ اللّدود قد أقسم على أن يسخّر كلّ طاقاته لصدّ بني آدم عن سواء السبيل، فقال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ

(1) سورة يوسف، الآية 5.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[1]. فهذا الرجيم يعلم حقّ العلم أنّ العبد لو ذكر الله تعالى فسوف لا يسعه الوسوسة له. وكما ذكرنا آنفاً فإنّ الذِّكر يطرد الشيطان، لذا فهو يتّبع شتّى السُّبل للحؤول بين العباد وبين خالقهم، حيث يوسوس لهم ويوقعهم في مكائد الغفلة والضلال. وقد أكّد سبحانه وتعالى على هذه الحقيقة في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[2].

2- الوَلَه بالمال والأولاد

لو تمسّك العبد بالدُّنيا وسخّر حياته لتحقيق مآربه منها، فسوف يغدو أسيراً لها ويُحرم من نعمة الذِّكر التي تُطهّر النفس من شوائبها. وقد حذّر البارئ تعالى من هذه المهلكة في كتابه المجيد قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[3].

وبالطبع فإنّ عبيد الدُّنيا الذين لا يفقهون من الحياة سوى حاجة البطن والشهوة، لا يحرمون أنفسهم من ذكر الله تعالى

(1) سورة الأعراف، الآيتان 16 و17.
(2) سورة المائدة، الآية 91.
(3) سورة المنافقين، الآية 9.

وحسب، بل إنّ مَن عاشرهم سينجرّ وراءهم ويخسر هذه النعمة العظيمة، لذلك فإنّ ربّ العزّة والجلال أمرنا بالابتعاد عن الغافلين في الآية الكريمة: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1].

ومن الجدير بالذِّكر أنّ الدّنيا الذميمة هي التي تحول بين العبد وبين ذكره ربّه وبالتالي تُفسد هدفه المنشود في نيل الكمال الأُخروي، أمّا الدّنيا التي تكون مزرعةً للآخرة فهي نعمةٌ عظيمةٌ وهي بالطبع ممدوحةٌ. حسب نظريّتنا الدينيّة فإنّ الدّنيا هي التي خُلقت للإنسان ولم يُخلق الإنسان لها، وهي ليست ذميمةً بذاتها، بل تصبح كذلك إذا ما جعلها العبد هدفاً له ونسي آخرته التي هي الغاية من خلقته.

3- الانشغال عن الله تعالى بالخلق

لو سخّر الإنسان حياته لإرضاء الناس وكسب ودّهم وحسب، فلا شكّ في أنّه سيغفل عن ذكر الله تعالى، وسيكون هاجسه الوحيد ماذا يقول أو يفعل لكسب محبّتهم. وقد قال الإمام عليّ عليه السلام في هذا الصدد: «**مَن اشتَغلَ بذِكرِ النّاسِ قطعَهُ اللهُ سُبحانَهُ عَن ذِكرِهِ**»[2]. وبالطبع فإنّ المقصود من الانشغال بالناس هو انهماك الإنسان بهم انهماكاً تامّاً وإعراضه عن ذكر

(1) سورة النجم، الآية 29.

(2) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج2، ص976.

ربّه، فهـذه هي الغفلة المذمومـة؛ لأنّ تعاليم ديننا قد حضّـتنا على خدمة الناس وقضاء حوائجهم بنيّةٍ خالصةٍ واعتبرت ذلك من أفضل الذِّكر والعبادة التي تقرّب العبد إلى ربّه.

4- اتّباع الشَّهوات

قـال سـيّد الموحّديـن عليه السلام: «**لَيسَ فِي المعاصِي أشدُّ مِن اتِّباعِ الشَّهوَةِ، فَلا تُطيعُوها فَتشغَلَكُم عَن ذِكرِ اللهِ**»[1].

فانهمـاك العبد بملـذّات الدُّنيا يُعيقه عن ذكر ربّـه ويحرمه من ألطافه الخفيّة، كمـا أنّ الله تعالى توعّد مَن اتّبع الدُّنيا في قوله: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

(1) المصدر السابق.

(2) سورة الحجر، الآية 3.

ذكر الموت

فضيلة ذكر الموت

لذكـر الموت وعدم الغفلة عمّا سـيقع في الحيـاة الآخرة فوائد جمّة، فهو أفضـل وسيلةٍ للسيطرة على جموح النفس وطغيانها، كما يعين العبد على الوقوف بوجه الشيطان ويحفظه من وساوسه. وقد أكّد رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم على هـذه الحقيقة بقوله: «**أفضـلُ الزُّهدِ في الدُّنيـا ذِكـرُ الموتِ، وأفصـلُ العِبادةِ ذِكـرُ الموتِ، وأفضـلُ التَّفكُّرِ ذِكـرُ المـوتِ؛ فمَن أثقلَهُ ذِكرُ الموتِ وجَدَ قبـرَهُ رَوضةً من رياضِ الجنّةِ**»[1]. وأكّد صلوات الله عليه في موضعٍ آخر على أنّ ذكر الموت من العقل، حيث قال: «**أكيَسُ النّاسِ مَن كانَ أشدَّ ذِكرًا لِلمَوتِ**»[2].

إنّ عـدم غفلة الإنسـان عمّا سـيؤول إليه مصـيره المحتوم عنـد حلول أجله الذي لا يعلم موعده إلا الله تعالى وذكره الموت الذي هو بداية حياةٍ أزليّةٍ باكورتها حسابٌ لما اقترفه في حياته الدُّنيا، يعتبر حافزاً له كي يبذل ما بوسعه في دار ممرّه ويستعدّ

(1) محمّد الشعيري، جامع الأخبار، ص12.

(2) محمّد بن عليّ بن بابويّه القمّي (الشيخ الصدوق)، الأمالي، ص14.

لدار مقرّه بعباداته الخالصة وأعماله الصالحة، كما يعدّ وازعاً لـه كي يتـرك كلّ ما يُلحق به الضّـرر والخسـران، ويحفظه من المكائد التي يحوكها له إبليس وجنوده.

وبعبارةٍ أُخرى، إنّ أفضـل سـبيلٍ لترسـيخ مبدأ العقل وعدم الانجرار وراء رغبات النفس غير المشـروعة يتلخّص في إيمان الإنسان بأصلين ثابتين، وهما:

الدُّنيا قصيرةٌ وفانية

إنّ جميع الكائنات في الحياة الدُّنيا، ومن ضـمنها الإنسان، تسـير بنسـقٍ واحدٍ نحو الموت المحتوم شـاءت أم أبت، سـواء عرّضـت لحادثٍ أم مرضٍ يقضـي علـى حياتها أم لـم تتعرّض لذلك، فسـوف يحين أجلها لا محالـة حيث تطوي مراحل العمر مـن الطفولة وصـولاً إلى ريعان الشـباب وانتهاءاً بالشـيخوخة التـي هـي بوّابـة الحياة الآخـرة. وبالطبـع لا يُسـتثنى أحدٌ من قانون الحياة هذا، سـواءٌ أكان صالحاً ومعصوماً أم كان طالحاً وطاغوتاً، فالجميع متساوون في ذلك، وهو ما صرّح به تعالى في كتابـه المجيد في الآيتين التاليتيـن: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[1]، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ﴾[2].

(1) سورة الرحمن، الآية 26 و27.

(2) سورة القصص، الآية 88.

الموت ليس فناءاً للروح

إنّ الإنسان ليس مخلّداً في الحياة الدُّنيا بل سيُخلّد في الحياة الآخرة، إذ بعد موته سوف ينعم بحياةٍ أزليّةٍ مفعمةٍ بالنعيم والهناء أو مشوبةٍ بالعذاب والشقاء. وبالطبع فإنّ فوز العبد بنعيم الجنّة أو سقوطه في حضيض جهنّم يرتبط بما قدّمه في الحياة الدُّنيا، فأعماله تتجسّد في الآخرة وينال إثرها جزاءَه العادل كما قال جلّ شأنه في كتابه المجيد: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1].

فالمؤمن حقّاً يوقن بأنّ الموت والبرزخ والقيامة والحساب والجنّة والنّار هي حقائق لا مناصّ منها، ويعلم أنّه مكلّفٌ بالاستعداد لها في حياته الدنيويّة لكي يتجاوزها بنجاحٍ. لذلك عليه أن يتوّج أعماله بالحسنات ولا يستسلم لوساوس عدوّه اللّدود إبليس. قال الإمام جعفر الصّادق عليه السلام: «**ذِكرُ الموتِ يُميتُ الشَّهواتِ فِي النَّفسِ ويَقلَعُ منابتَ الغفلةِ ويُقوِّي القلبَ بِمواعِدِ اللهِ ويَرِقُّ الطَّبْعَ ويَكسُرُ أعلامَ الهوَى ويُطفِئُ نارَ الحِرصِ ويُحقِّرُ الدُّنيا، وهو معنَى ما قالَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: فِكْرُ ساعَةٍ خَيْرٌ مِن عِبادةِ سَنَةٍ**»[2].

(1) سورة الزّلزلة، الآيتان 7 و8.

(2) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص133.

الآخرة في القرآن الكريم

إنّ عدد الآيات التي تطرّقت إلى مسألة الموت والحياة الآخرة يُقارب 2500 آيةٍ، وكثرتها دليلٌ جليٌّ على أهميّتها ودورها الكبير في ترسيخ عقيدة المعاد بذهن العبد وتحفيزه على عدم نسيانه أجله المحتوم.

فيما يلي نذكر عدداً من تلك الآيات راجين أن تكون حافزاً لنا على التأمّل في أفعالنا وأقوالنا وعدم الزلل فيها:

سورة الأنبياء التي تتمحور حول أنبياء الله تعالى ورسله وخصالهم وما رافق حياتهم من أحداث، افتتحها سبحانه وتعالى بتحذيرٍ لبني آدم، حيث قال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾[1].

أشار تعالى إلى أنّ الإيمان بالقيامة وعدم إنكارها هو أحد أسباب النجاة من الانحراف، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾[2].

كما أنكر جلّ شأنه على الذين لا يعتقدون بالمعاد في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[3].

(1) سورة الأنبياء، الآية 1.
(2) سورة المطفّفين، الآيتان 4 و5.
(3) سورة المؤمنون، الآية 115.

وقد أكّد سبحانه على أنّ الخوف من عذاب الآخرة لا ينفع عامّة الناس وحسب، بل حتّى أنّ أنبياءه وأولياءه الصالحين جعلوه رادعاً لهم أمام أهواء النفس وملذّاتها، فقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾[1].

وصّرح تعالى في كتابه المجيد، بأنّ أحد أهمّ أسباب إنكار المعاد من قِبل الملحدين، يكمن في اتّباعهم الهوى وباعتمادهم على تبريرات وأدلّة واهية. ففي سورة طه المباركة يقول الله عز وجل مؤكداً: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾[2]. وفي سورة القيامة نقضَ ادّعاءهم بأدلّةٍ علميّةٍ وشدّد على أنّ الشبهة العلميّة لا تعدّ دليلاً على نفي المعاد، بل إنّ الانحراف العلميّ والضلال الذي أعمى بصائرهم هو الذي جعلهم ينكرون يوم الحساب وحرمهم من الإيمان بالجنّة والنار، إذ قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾[3].

ففي أكثر من خمس عشرة آيةً ذكّر الله تعالى النّاس بأنّ الموت أمرٌ حتميٌّ ولا محالة من وقوعه، وفي أكثر من عشر آياتٍ صرّح بأنه لا يُستثنى منه أحد، ونكتفي هنا بذكر ثلاث آياتٍ

(1) سورة الأنعام، الآية 15.
(2) سورة طه، الآيتان 15–16.
(3) سورة القيامة، الآيات 3 إلى 5.

في هذا الصدد: ﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ ﴾[1]، ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ ﴾[2]، ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦ ﴾[3].

(1) سورة النساء، الآية 78.

(2) سورة العنكبوت، الآية 57.

(3) سورة الأحزاب، الآية 16.

التوبة وتطهير النَّفس

الخطوة الأولى نحو الجهاد

لا أحد ينكر صحّة الحكمة القائلة (الوقاية خيرٌ من العلاج)، لـذا فإنّ ترك الذنب واجتنابه أسـهل بكثيرٍ من طلب التوبة بعد التدنّس بشوائبه، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**تَركُ الذَّنبِ أهوَنُ مِن طلَبِ التَّوبَةِ**»[1].

والواقع أنّ الإنسـان طوال مسـيرة حياته يتعرّض للكثير من المغريات وينخدع بوسـاوس الشـيطان فيقع فـي المحذور بعد ارتكاب المعاصـي، ولو يئس من إصـلاح ما أفسده ظنّاً منه أنّه سـقط في الهاوية التي لا خلاص منها، فسوف يفقد الدافع في العودة إلى الطريق الصـحيح، وهـو ما يمكن أن يدفعه لارتكاب آثـامٍ أكثر وأكبر. أمّا لو اعتقد أنّ طريق التوبة إلى الله عزّ وجلّ مفتوحٌ لجميع العباد في كلّ آنٍ، وأنّه لم يقطع السُّبل عنهم حتّى وإن عصَوه، فسـوف لن ييأس من رحمته تعالى ولن يفقد الأمل بالنّجاة من براثن الشـيطان الرجيم، ومن ثمّ سيسعى لتطهير

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج70، ص364.

ذاتـه من دنَس المعاصـي ويجعل التوبة بلسَـماً لدائه وسـراجاً يسـتنير به في غياهب الظلام. وقد قال الإمام جعفر الصـادق عليه السلام منوّهـاً بهذه الحقيقة: «**التَّوبـةُ حَبلُ اللهِ ومَـدَدُ عِنايَتِهِ، ولا بُدَّ للعَبدِ مِن مُداوَمةِ التَّوبةِ علَى كُلِّ حالٍ**»[1].

فأوّل خطوةٍ في الجهاد الأكبر لتهذيب النفس، وبالتأكيد أهمّ خطوةٍ، هي تزكية الروح وتطهيرها من الأمراض والرّذائل التي لوّثتهـا. ولا ريب فـي أنّ التوبة هي العلاج الأنجع. فقد أكرم الله تعالـى عبادَه العاصـين بنعمة الإنابة إليه والرجـوع عن الذّنب. والتوبة في حقيقتها ثورةٌ باطنيّةٌ تجتثّ كلّ رذيلةٍ وتمحو شـوائب المعاصـي التي لطّخت النفس الإنسـانيّة، كما قال سيّد الأنبياء والمرسـلين صلى الله عليه وآله وسلم: «**لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ، ودَواءُ الذُّنـوبِ الاستغفارُ**»[2]. وقال سـيّد الموحّديـن عليه السلام: «**التَّوبةُ تُطهِّـرُ القُلـوبَ وتَغسِلُ الذُّنوبَ**»[3].

فلا عملَ يكسر شوكة إبليس وجنوده من شياطين الإنس والجنّ ويصعقهم صـعقاً، مثل التوبة من الذّنوب والرجوع إلى الطريق الصـحيح الذي خطّـه تعالى لخلقـه. فالعبد ومن خـلال توبته وعزمه على إصلاح ذاته يُفشل كلّ مساعي هؤلاء الشياطين التي بذلوها لصدّه عن سواء السّبيل لإقحامه معهم في عذاب جهنّم

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص31.
(2) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج11، ص354.
(3) التميمي الآمدي، غرَر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص195.

وبئس المصـــير، وبالتالي سيحظى بفضلٍ من ربّه ورضوان. قال تعالـــى في كتابه الكريـــم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[1]، وقال نبيّنا الكريم ﷺ: «**أما واللهِ، اللهُ أشدُّ فرَحاً بتَوبةِ عبدِهِ مِن الرّجلِ براحلَتـهِ**»[2]. كمــا أشــار الإمــام محمّد الباقــر عليه السلام إلى هذا المضــمون بقولــه: «**إنّ اللهَ تعالــى أشــدُّ فرحاً بتوبــة عبده من رجلٍ أضــلّ راحلتَهُ وزادَهُ فــي ليلةٍ ظلماءَ فوَجدَهــا، فاللهُ أشدُّ فرَحاً بتوبةِ عبدِهِ مِن ذلكَ الرَّجلِ براحلَتهِ حِينَ وجدَها**»[3].

وقــد خاطب البارئ عزّ وجلّ العُصــاة من بنــي آدم بعباراتٍ مفعمــةٍ بالرأفــة والرحمــة، فناداهــم (يــا عبادي) في ســورة الزُّمــر، وأمرهــم بالتّوبة وإصــلاح الــذّات قبل أن يحــلّ عليهم عــذابٌ أليمٌ، وبســط لهم رحمتــه التي لا يحجبها ذنــبٌ، فقال: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾[4]. قــال العلاّمــة محمّد حســين الطباطبائيّ رحمه الله في تفســير هذه الآية المباركة: «الإنابــةُ إلى اللهِ الرجوعُ إليهِ، وهو (أي الرجوع) التوبةُ»[5].

---

(1) سورة البقرة، الآية 222.

(2) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص39.

(3) محمّد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، ج2، ص435.

(4) سورة الزُّمر، الآيتان 53 و54.

(5) محمّد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج17، ص280.

والتوبة النَّصوح لا تمحو الذّنوب وتطهّر النّفس من أدرانها وتُحبّب العبد إلى ربّه وحسب، بل تُصلح ذاته وينال بها كرامةً وفضلاً عظيماً منه تعالى لدرجة أنّه يحوّل سيّئاتِهِ إلى حسنات، كما قال جلّ شأنه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾[1].

هناك العديد من الاحتمالات ذُكرت حول مسألة تبديل السيّئات إلى حسناتٍ وهي مقبولةٌ بشكلٍ عامٍّ، حيث ذكرها آية الله مكارم الشيرازي في تفسيره كالتالي:

حينما يتوب الإنسان ويؤمن بالله، تتحقّق تحوّلاتٌ عميقةٌ في جميع وجوده، وبسبب هذا التحوّل والانقلاب الداخلي تتبدّل سيّئات أعماله في المستقبل حسناتٍ...

فإذا كان زانياً، فإنّه قد يكون بعدها عفيفاً وطاهراً، وهذا التوفيق الإلهيّ يناله العبد في ظل الإيمان والتوبة.

وإنّ الله تبارك وتعالى بلطفه وكرمه وفضله وإنعامه يمحو سيّئات أعمال العبد بعد التوبة ويضع مكانها حسناتٍ. نقرأ في روايةٍ عن أبي ذر: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يُؤتَى بالرَّجلِ يومَ القِيامةِ فيُقالُ اعرضُوا صِغارَ ذُنوبِهِ، وتُخبَّأ كبارُها؛ فيُقال: عملتَ يومَ كذا وكذا، وهو يُقِرُّ ليسَ بمنكرٍ، وهو مشفقٌ مِن**

(1) سورة الفرقان، الآيتان 70 و71.

الكبائـرِ أنْ تجـيءَ. فـإذا أرادَ اللهُ خَيـراً قال: أعطُـوه مكانَ كلِّ سيّئـةٍ حسنَـةً، فيقول: يا ربِّ لـي ذنوبٌ ما رأيتُهـا ها هنا» قال: ورأيتُ رسولَ اللّه ﷺ ضحك حتّى بدَتْ نواجِذَهُ.

التّفسـير الثّالث هـو أنّ المقصـود من السـيّئات ليس نفس الأعمـال التي يقوم بها الإنسـان، بل آثارها السـيّئة التي تنطبع بها روح ونفس الإنسـان. فحينما يتـوب ويؤمن تُجتثُّ تلك الآثار السـيّئة من روحه ونفسـه، وتُبـدَّل بآثار الخير، وهـذا هو معنى تبديل السيّئات حسنات[1].

وهناك أبحاثٌ فرعيّةٌ تتعلّق بالتوبة، نذكر منها ما يلي:

أركان التَّوبة

إنّ التوبة التي تُرضي اللّه تعالى وتُسخط عدوّه إبليس هي التي تقلب موازين شخصيّة العبد وتجعله نادماً على ما فعل وتزرع في نفسه القدرة على سلوك الصراط المستقيم من خلال طاعة خالقه وتهذيب نفسه وإصلاح ما أفسدته المعاصي. وإذا كان مديناً للّه تعالى أو لخلقه عليه أن لا يتوانى في أداء تلك الحقوق طرفة عينٍ. وبالطبع فإنّ هكذا توبةً نصوحاً لها أركان خاصّة، يمكن التعبير عنها بمراحل أو شروط التوبة، كما يلي:

(1) بتصرف، ناصر مكارم الشيرازي، التفسير الأمثل، ج11، ص314.

1- النَّدم على ارتكاب الذَّنب

أوّل وأهـمّ خطـوةٍ يخطوها التائب عند توبته، هي شـعوره بالنّـدم والخسـران إثر ما ارتكب من معاصٍ شـوّهت باطنه، فحالـه حـال المريض الـذي يلجـأ إلـى العلاج فور شـعوره بالألـم. قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**النَّـدَمُ تَوبَـةٌ**»[1]، وقال الإمام علـيّ عليه السلام: «**استَرجِـعْ سالِـفَ الذُّنوبِ بِشـدَّةِ النَّـدَمِ وكَثرَةِ الاستغفـار**»[2].

وكذلـك، فإنّ النّدم على ارتكاب الذّنوب يعدّ أفضـل محرّكٍ للإنسـان يُحفّزه على اجتنابها مسـتقبلاً، كما قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام نقلاً عن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ النَّدمَ علَى الشَّرِّ يَدعُو إلى تَركِه**»[3].

2- الإقرار بالذَّنب

قـال الإمام محمّد الباقـر عليه السلام: «**لا واللهِ مـا أرادَ اللهُ مِن النّاسِ إلّا خِصلَتَين، أنْ يُقِرُّوا لَـهُ بالنِّعَمِ فيزيدُهُمْ، وبالذُّنوبِ فيغفِرُها لَهُمْ**»[4]. وقال أيضاً: «**وَاللهِ ما يَنجُو مِن الذَّنبِ إلّا مَن أقرَّ بِه**»[5].

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج74، ص159.
(2) المصدر السابق، ج75، ص165.
(3) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، كتاب جهاد النفس، ص336.
(4) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص36.
(5) المصدر السابق.

3- العزم على ترك الذُّنوب

رُوي عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام قوله: «التّائبُ من الذَّنبِ كَمَنْ لا ذَنبَ لَهُ، والْمُقِيمُ على الذَّنبِ وَهُوَ مُستَغفِرٌ مِنهُ كَالْمُستَهزئ»[1].

رُوي عن أبي الصباح الكناني أنّه قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾[2]، قال: «يَتوبُ العبدُ مِن الذَّنبِ ثُمَّ لا يَعودُ فِيهِ»[3].

4- تدارك ما فات

إنّ التوبة الحقيقيّة لا بدّ وأن تتجلّى آثارها على شخصيّة التائب، وذلك بإصلاح ما أفسد. فعليه فعل ما ترك وأداء ما في ذمّته من حقوقٍ للآخرين ليكسب رضاهم، فإن لم يتسنَّ له ذلك يجب عليه أن يسأل الله الرّحمة والمغفرة لصاحب الحق الذي تجاوز عليه. وكذلك لا بدّ له من قضاء عباداته إن كان قد قصّر فيها. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «التّائبُ إذا لَم يستَبِنْ أثرَ التَّوبةِ فَلَيسَ بتائبٍ، يُرضِي الْخُصماءَ ويُعيدُ الصَّلَواتِ ويَتواضَعُ بَينَ الْخَلقِ ويَتَّقِي نَفسَهُ عَنِ الشَّهَواتِ ويُهزِلُ رقبتَهُ بصيامِ النَّهارِ

(1) محمّد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، ج2، ص435.
(2) سورة التحريم، الآية 8.
(3) المصدر السابق، ص432.

ويُصفرُ لونَهُ بقيامِ اللّيلِ ويُخمِصُ بطنَهُ بقلّةِ الأكلِ ويُقوِّسُ ظَهرَهُ مِن مَخافةِ النّارِ ويُذيبُ عِظامَهُ شَوقاً إلى الجنّةِ، ويُرِقُّ قلبَهُ مِن هَولِ مَلَكِ الموتِ ويُجَفِّفُ جلدَهُ على بدنِهِ بتفكُّرِ الأجَلِ؛ فَهذا أثرُ التَّوبةِ. وإذا رأيتُمْ العبدَ على هذِهِ الصُّورةِ فهُو تائبٌ ناصِحٌ لِنَفسِهِ»[1]. وقال صلوات الله عليه في مناسبةٍ أُخرى: «أتَدرونَ مَن التّائبُ؟».

قالوا: اللّهُم لا.

قال: «إذا تابَ العبدُ ولَمْ يُرضِ الْخُصَماءَ فلَيسَ بتائبٍ، ومَن تابَ ولَمْ يَزدْ في العبادَةِ فلَيسَ بتائبٍ، ومَن تابَ ولَمْ يُغيِّرْ لباسَهُ فلَيسَ بتائبٍ، ومَن تابَ ولَمْ يُغيِّرْ رُفقاءَهُ فلَيسَ بتائبٍ، ومَن تابَ ولَمْ يُغيِّرْ مَجلِسَهُ فلَيسَ بتائبٍ، ومَن تابَ ولَمْ يُغيِّرْ فِراشَهُ ووِسادَتَهُ فلَيسَ بتائبٍ»[2]. فبعد تحقّق هذه الشروط يتجلّى المعنى الحقيقيّ للاستغفار.

ورُوي أنّ شخصاً قال بحضرة الإمام عليّ عليه السلام: أستغفرُ اللّه. فقال له: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! أتَدْري ما الاسْتِغْفارُ؟! إنَّ الاسْتِغْفارَ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ وهُوَ اسْمٌ واقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعانٍ، أوَّلُها النَّدَمُ عَلَى ما مَضَى، والثّانِي الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إلَيْهِ أبَداً، والثّالِثُ أنْ تُؤَدِّيَ إلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللهَ أمْلَسَ لَيْسَ

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص35.

(2) المصدر السابق.

عَلَيْكَ تَبِعَةٌ، والرّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَها فَتُؤَدِّيَ حَقَّها، والْخامِسُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذيبَهُ بالأَحْزانِ حَتَّى تُلْصِقَ الْجِلْدَ بالْعَظْمِ ويَنْشَأَ بَيْنَهُما لَحْمٌ جَديدٌ، والسّادِسُ أَنْ تُذيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطّاعَةِ كَما أَذَقْتَهُ حَلاوَةَ الْمَعْصِيَةِ؛ فَعِنْدَ ذلِكَ تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ»[1].

ثمار التَّوبة

التَّوبة النَّصوح تُرضي الله تعالى وتدحض الشَّيطان ولها فوائد عظيمة، منها ما يلي:

1- التّوبة تطهّر النّفس

التَّوبة دواءٌ يُطهّر القلبَ ويُنظّفه من أدران المعاصي والرّذائل، كما أنّها تُنجي التّائب من مكائد الشّيطان وتزرع في نفسه الطمأنينة لمستقبله وتحفّزه على أداء واجباته وعباداته بأحسن وجهٍ. وحسب ما نستلهمه من أحاديث المعصومين عليهم السلام فإنّ قلب التّائب توبةً نصوحاً نقيٌّ وكأنّه لم يعصِ أبداً، لذلك يمكنه أن يُهيّئ نفسَه لطلب علوم الدّين ومعارفه والانتهال من فيض خالقه وبركة ملائكته بعد أن نجا من حبائل الشّياطين، فقد قال الإمام الباقر عليه السلام: «التّائبُ مِن الذَّنبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ»[2].

(1) الشّريف الرّضي، نهج البلاغة، الحكمة رقم 417.

(2) محمّد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، ج2، ص435.

2- التّوبة تقوي العزيمة

التّوبة تزيد من عزيمة الإنسان وتُرسّخ إرادته في ذات الله تعالى، وفي نفس الوقت تقطع دابر الشّيطان وتكبح النّفس الأمّارة. فهي تُحرّر العبد من قيود إبليس وجنوده وبالتالي تصونه من الانحراف عن الصراط المستقيم وتضمن له إطاعة الخالق عزّ وجلّ لينال بعد ذلك السعادة المنشودة، الأمر الذي أكّد عليه تعالى في كتابه المجيد حين قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[1]، وقال الإمام عليّ عليه السلام: «النَّدمُ علَى الذَّنبِ يَمنعُ عَن مُعاوَدَتِه»[2].

وبالطبع فإنّ التّائب ما دام تاركاً للذّنب، وصائناً نفسه منها ومن مكائد الشّيطان الرّجيم، فبركة التّوبة ستُفعم نفسه ونورها سيسطع في قلبه، وإلّا فإنّ الآثام والمعاصي ستُكدّر قلبه وباطنه وتسوقه نحو ظُلمات التّيه والضّلال، كما قال الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «ما مِن عَبدٍ إلّا وفِي قلبِهِ نُكتَةٌ بَيضاءُ، فَإذا أذنَبَ ذَنباً خَرَجَ فِي النُّكتةِ نُكتةٌ سوداءُ، فإنْ تابَ ذهَبَ ذلكَ السَّوادُ، وإنْ تَمادَى فِي الذُّنوبِ زادَ ذلكَ السَّوادُ حَتَّى يُغطِّي البَياضَ، فَإذا غَطَّى البَياضَ لَمْ يرجِع صاحِبُهُ إلى خَيرٍ أبَدَاً»[3].

(1) سورة هود، الآية 52.

(2) حسن النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل، ج2، ص346.

(3) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج70، ص332.

3- التّوبة تُحيي الرّجاء

لـولا تشـريع اللّه تعالـى التّوبـة وإكرامـه عباده بغفـران ما اقترفوه من ذنوبٍ ومعاصٍ، لاجتاح اليأس كيانَهم ولخاضـوا في طغيانهـم يعمهـون دون أن يفكّـروا بالرّجوع إلى سـبيل الهدى. فباب التّوبة مفتوحٌ أمام الخلق كافّةً في كلّ آنٍ والطريق أمامهم سالكةٌ لإصلاح ما أفسدته أيديهم.

وبالطبع، فإنّ اليأس من رحمة اللّه تعالى كالكفر لأنّه يقضـي على الرّجاء، حيث قال جلّ شأنه: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[1]، وقـال الإمـام علـيّ عليه السلام: «أعظَـمُ البَلاءُ انقِطـاعُ الرَّجاءِ»[2]، ونقل الشّـعبي عنه أيضاً: «عَجِبتُ لِمَن يَقنطُ ومعَهُ النّجاة، وهو الاستغفارُ»[3].

من أهمّ ميّزات المدارس الدينيّة، ولاسيّما المدرسة الإسلاميّة، أنّهـا تقطع الطّريـق أمام اليأس وتحول دون سـرايته إلى نفوس أتباعها، ولا ترفض عودتهم إلى أحضانها بعد توبتهم مهما اقترفوا من آثام، بل تُرحّب بهم وتحتضنهم بحفاوةٍ وتُكرمهم إذا ما أصلحوا أنفسهم. فقد خاطب ربّ العزّة والجلال عبادَه بعطفٍ ورحمةٍ قائلاً: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ

(1) سورة يوسف، الآية 87.
(2) التميمي الآمدي، غُرَر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص83.
(3) نفس المصدر، ص195.

﴿ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾[1]. وحسب ما ذكرنا من أحاديث تتّضح لنا مدى محبّة الله تعالى لعبده التّائب.

4- التّوبة مدَدٌ سماويٌّ

إنّ الله تعالى يُنعم على العبد التائب بمعين فيضه وبركاته التي لا تنضب، كما جاء ذلك على لسان نبيّه هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾[2]. وكذلك نقرأ في نفس السُّورة: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾[3]. وقال الإمام عليّ عليه السلام: «التَّوبةُ تستنزِلُ الرَّحمةَ»[4].

والواقع أنّ ما ذُكر لا يستوفي جميع جوانب التّوبة لأنّ أبحاثها واسعةٌ ومتشعّبةٌ لا مجال للتطرّق إليها بالتفصيل في هذا الإطار المحدود، ولا نرى بأساً في أن نختم الحديث عنها بكلام للإمام الخمينيّ رحمه الله: «إلهي ألهِمنا صَدراً مُحترقاً واقذِفْ في قُلوبِنا جَذوةً مِن نارِ النَّدامَةِ واحرِقْهُ مَع هذهِ النّارِ «النّدامة» الدنيويّة، وأزِلْ عَن قُلوبِنا الكَدَرِ والغبرَة، وأخرِجْنا مِن هذا العالَمِ مِن دونِ مُضاعَفاتِ المعاصي؛ إنَّك وَلِيُّ النِّعَمِ وعَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ»[5].

(1) سورة الزُّمَر، الآية 53.
(2) سورة هود، الآية 52.
(3) سورة هود، الآية 3.
(4) التميمي الآمدي، غُرَر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص195.
(5) الإمام الخمينيّ رحمه الله، الأربعون حديثاً، ص310.

الالتزام بالأحكام الشَّرعيَّة

الهدف من التشريع

إنّ علّة تشريع الأديان السماويّة تكمن في هداية الإنسان إلى هدفه الفطريّ وسعادته الأبديّة، وبالطبع فهي علّة تشريع ديننا الإسلاميّ أيضاً الذي هو في الحقيقة أفضل هذه الأديان وأتمّها.

إن تعاليم ديننا الحنيف وأحكامه الشرعيّة برمّتها، تتمحور حول بيان السُّبل المثلى التي تصقل شخصيّة العبد وتُنمّي قدراته لبلوغ أسمى درجات الكمال الحقيقيّ. فالواجبات والمستحبّات جميعها هي وسائل تأخذ بيده لتحقيق هذا الهدف السامي بلطفٍ من الله تعالى حيث جعلها أُسُساً لبناء شخصيّته وترسيخ دعائم المجتمع، وصيّرها حصناً حصيناً يصدّ هجمات إبليس وجنوده ويكبح جموح النفس ونزواتها.

إنّ الله تعالى خلق العبد بجسمٍ ماديٍّ وروحٍ مقدّسةٍ، وأسكنه الأرض حتّى يتهيّأ لحياته الأبديّة، فزرع في نفسه الرغبة بالسَّير نحو العُلا وبلوغ السعادة المنشودة عن طريق التقرّب إليه بالأعمال الحميدة التي هي جسرٌ من عالم المادّة إلى عالم

الرُّوح، وهذا هو طريق ذات الشوكة الذي يُكابد فيه السالك ما يُكابد. قال عزّ وجلّ في كتابه المجيد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾[1].

واستناداً للتّجربة وحُكم العقل، هناك شرطان أساسيّان لا بدّ من تحقّقهما لقطع أيّ طريقٍ وبلوغ نهايته، وهما:

1- وجود المقتضي، أي توفّر الوسيلة أو الوسائل التي تيسّر سلوكه. وبالتأكيد كلّما كانت هذه الوسيلة أقوى وأصلح وأكثر انسجاماً مع طبع الإنسان، فإنّ السفر سيكون أسهل وأسرع وأكثر راحةً.

2- ارتفاع المانع، أي إزاحة كلّ ما من شأنه عرقلة سلوكه.

لذا، ما هي الوسائل اللازمة لسلوك الإنسان أهمّ سبيلٍ في حياته على الإطلاق، ابتداءاً من عالم المادّة وصولاً إلى عالم الروح والقرب الإلهيّ الذي هو الهدف والمقصود؟ وما هي الحواجز التي تعترض هذا الطريق وتحول بين العبد وبين تحقيق هدفه الأسمى؟

فديننا الإسلاميّ الحنيف الذي هدفه هداية الإنسان، وجميع تعاليمه وأحكامه تنصبّ في إعانته على تحقيق هذا الهدف، ماذا وفّر للإنسان من وسائل تيسّر سفره المضني هذا وتهديه إلى أقرب وأسرع الطُّرق لبلوغ غايته المنشودة؟ فماذا أعدّ له

(1) سورة الانشقاق، الآية 6.

من حلولٍ لمواجهة قطّاع الطُّرق وإزالة عقبات السَّفر؟ هذه أهمّ الاستفسارات التي يواجهها كلّ متديّنٍ يبحث عن نقطة انطلاقٍ لتهذيب نفسه وبناء مجتمعه ولا يرجو من حياته إلا أن تكون مقدّمةً للفوز بنعيم الآخرة.

وللإجابة عمّا ذُكر نقول: لا بدّ لنا من الإقرار بأنّ جميع تعاليم وأحكام الشريعة الإسلاميّة هي وسائل وهبها الله تعالى لعباده لتيسّر له سلوك السَّبيل الصحيح وبلوغ هدفه المنشود الذي ينعم فيه بالسعادة الأزليّة. فأهميّة كلّ حكمٍ شرعيٍّ تكون بمقدار تأثيره على سلوك العبد سبيلَ الكمال، ومهما كان تأثيره أكثر فأهميّته أكبر؛ لذلك فإنّ الركن الأساسيّ لكلّ عبادةٍ هو تحقّق نيّة القربة طلباً لرضا الله تعالى، حيث يجب على العبد أن يسخّر هذه الوسائل لكسب درجات العُلا عند معبوده الأوحد.

والحقيقة أنّ التمرّد على أوامر الله تعالى والتملّص من أداء أحكام الشريعة وتلطيخ الباطن بالآثام، هي الحواجز التي تجعل الطريق وعراً أمام العبد في حياته الدّنيا وتحرمه من بلوغ غايته السامية، وهي المنطقة المحظورة التي لا يحقّ له دخولها.

ورسولنا الكريم محمّد ﷺ خلال ثلاث وعشرين سنةً من الجهد الحثيث والمتواصل في تبليغ رسالات الله، قد عرض لنا أفضل برنامجٍ لإدارة الحياة، وفي خاتمة المطاف أكمل لنا

الشـريعة حينما صدع بالحقّ في حجّة الوداع الشهيرة ولخّصها في أمرين أساسيّين، هما:

1- الواجبات التي هي وسـائل تأخذ بيد العبد لبلوغ السعادة الأزليّة في جنان النعيم.

2- المحرّمات التي هي حواجز تُعيق العبد وتسوقه إلى جهنّم وبئس المصير.

آثار اتباع الأحكام الشرعية

إذن، السَّـبيل الوحيد لبلوغ السعادة الأُخرويّة والخلاص من مستنقع الدّنيا هو الأوامر والنّواهي التي جاءنا بها خاتم الأنبياء والمرسـلين ﷺ في شريعته السمحاء، حيث بيّنها في الحديث التالي:

روى أبو حمزة الثّمالي عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «**خَطبَ رسـولُ اللهِ ﷺ فِـي حجّـةِ الـوَداعِ فقالَ: يـا أيُّهَا النّاسُ، واللهِ مـا مِـن شيءٍ يُقرِّبُكُـمْ مِن الجنَّـةِ ويُباعِدُكُمْ مِن النّـارِ إلّا وقَد أمرتُكُـمْ بِـهِ، ومـا مِن شـيءٍ يُقرِّبُكُـمْ مِـن النّـارِ ويُباعِدُكُمْ مِن الجنَّةِ إلّا وقَد نَهيتُكُمْ عَنهُ**»[1].

أمّا إبليس وجنوده فيتربّصـون بابن آدم الحيَل ويتّبعون شتّى الوسائل لقطع الطريق عليه ومحاصرته، إذ يوسوسون له بارتكاب

(1) محمّد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، ج2، ص74.

الذّنب ويحرّضونه على معصية خالقه. والقرآن الكريم بدَوره قد فضح هذه الدّسائس وحذّر الإنسان من الوقوع في مهالك فِتنة هؤلاء الفسقة ومكائدهم. ففي سورة الأعراف أخبرنا الله عزّ وجلّ أنّ إبليس بعد أن طُرد من حضرة القُدس عندما امتنع عن السجود لآدم، توعّد ذريّته قائلاً: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾[1].

والحقيقة أنّ التّكاليف الشرعيّة، ولا سيّما العبادات، لا تقرّب العبد من ربّه وتقوده إلى الكمال وحسب، بل تُفسد مخطّطات إبليس وتُحبط مساعيه الدنيئة وتعين العبد على الغلبة على نفسه وتكبح أطماعها الدنيويّة. فاستعانة المسلم بالواجبات والمستحبّات هي السَّبيل الوحيد لكسر شوكة الشياطين وظفره في صراعه المرير مع ملذّات الدنيا الزائلة في جهاده الأكبر؛ فقد خاطب تعالى عبادَه المؤمنين قائلاً: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾[2].

وبالطبع فإنّ الاستعانة بالأحكام الشرعيّة لبلوغ درجة الكمال تتطلّب الخضوع لذات الله تعالى وعبادته بخشوعٍ، ولكن للأسف الشديد فإنّ جميع المسلمين لا يمتلكون هذه القدرة، حيث قال تعالى:

(1) سورة الأعراف، الآيتان 16 و17.

(2) سورة البقرة، الآيتان 152 و153.

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1]. وأكّد تعالى شأنه على دَور الصّلاة الهامّ في هذا المضمار بقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾[2].

يقول العلّامة محمّد حسين الطباطبائيّ رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية المباركة: «الصَّلاةُ عمَلٌ عِباديٌّ يُورِثُ إقامتُهُ صفةً روحيّةً في الإنسانِ تكونُ رادعةً لهُ عن الفحشاءِ والمنكرِ، فتتنزّهُ النفسُ عن الفحشاءِ والمنكرِ وتتطهّرُ عن قذارةِ الذُّنوبِ والآثامِ. فالمرادُ بهِ التوسُّلُ إلى ملَكَةِ الارتِداعِ الّتي هِي مِن آثارِ طبيعةِ الصّلاةِ بنحوِ الاقتضاءِ، لا أنَّها أثرُ بعضِ أفرادِ طبيعةِ الصّلاةِ، ولا أنّها أثرُ الاشتغالِ بالصّلاةِ ما دامَ مُشتغلاً بِها، ولا أنّ المرادَ هُو التوسُّلُ إلى تلقِّي نَهي الصّلاةِ فَحسبُ من غيرِ نظرٍ إلى الانتهاءِ عن نَهيها كأنّهُ قيل: أقِم الصّلاةَ لتَسمعَ نَهيها، ولا أنّ المرادَ أقِم الصّلاةَ لينهاكَ الذِّكرُ الّذي تشتملُ عليهِ عن الفَحشاءِ والمنكرِفالحقُّ فِي الجوابِ أنّ الرّدعَ أثرُ طبيعةِ الصّلاةِ الّتي هِي تَوجُّهٌ خاصٌّ عباديٌّ إلى اللهِ سبحانَهُ، وهو بنحو الاقتضاءِ دونَ الاستيجابِ والعلّيةِ التامّةِ، فربّما تخلفُ عن أثرِها لمقارنةِ بعضِ الموانعِ الّتي تُضعفُ الذِّكرَ وتقرّبهُ من الغفلةِ والانصرافِ عن حاقِّ الذّكرِ؛ فكُلّما قَويَ الذّكرُ وكملَ الحضورُ والخشوعُ وتمحّضَ

(1) سورة البقرة، الآية 45.

(2) سورة العنكبوت، الآية 45.

الإخلاصُ، زادَ أثرُ الرّدعِ عن الفحشاءِ والمنكرِ وكلّما ضعُفَ، ضعُفَ الأثرُ[1]».

أمّا بالنسبة لفضيلة الصيام وآثاره الحميدة، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾[2].

وإنفاق المال في سبيل الله تعالى مقدّمةٌ لرقيّ الإنسان وبلوغه السعادة المنشودة، لما في ذلك من تنفيسٍ عن المكروبين وقضاءٍ لحوائجهم، وكذلك دَوره التربويّ في المجتمع، فقد قال عزّ وجلّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[3].

أمّا الأحاديث المرويّة عن المعصومين عليهم السلام والتي تدور حول الآثار التربويّة للتكاليف والأحكام الشرعيّة وتأثيرها الكبير على الفرد والمجتمع فهي كثيرةٌ، ونستلهم منها أنّ الله تعالى لم يشرّع إلا ما فيه مصلحة للإنسان وسُموّ لروحه، وفي نفس الوقت يدحض الشياطين ويمرّغ أُنوفهم. نشير فيما يلي إلى عددٍ من هذه الأحاديث:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اعمَلْ بِفرائضِ اللهِ، تَكُنْ أَتقَى النّاسِ**»[4].

(1) محمّد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج16، ص135.
(2) سورة البقرة، الآية 183.
(3) سورة آل عمران، الآية 92.
(4) محمّد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، ج2، ص82.

وقال أيضاً: «عَلَيكُمْ بالصَّومِ فإنَّهُ مَحسَمةٌ للعُروقِ ومَذهَبةٌ للأشَرِ»[1].

قال الإمام عليّ عليه السلام: «الصَّلاةُ حِصنٌ مِن سَطَواتِ الشَّيطانِ»[2].

قالت السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام: «فرَضَ اللهُ الصِّيامَ تثبيتاً للإخلاصِ»[3].

استفسارٌ هام وجوابٌ

قد يتساءل بعض الناس أنّ أداء الواجبات والتكاليف الشرعيّة يُهذّب شخصيّة الإنسان ويصونه من ارتكاب المحرّمات، فكيف يرتكب بعض الناس المعاصي والآثام رغم التزامهم بأداء فرائضهم الدينيّة، كالصلاة والصيام والحجّ؟! لماذا لا تحول أعمالهم العباديّة دون انحرافهم؟!

وفي الجواب نقول:

أوّلاً: إنّ الملتزمين بأداء فرائضهم الدينيّة بالطبع أقلّ ارتكاباً للمعاصي من غير المتديّنين الذين لا يُعيرون أهميّةً لما كُلّفوا به من واجباتٍ، ولا سيّما أنّهم أقلّ ارتكاباً لكبائر الذّنوب والآثام التي تفتك بالفرد وتزلزل أركان المجتمع. ففي شهر رمضان المبارك على سبيل المثال، فإنّ غالبيّة

(1) محمّد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، نقلاً عن كنز العمّال، ح23610.
(2) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج5، ص367.
(3) محمّد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، ج2، ص466.

المسلمين منهمكون في العبادة وأعمال الخير والمعروف، الأمر الذي يجعل نسبة المعاصي في المجتمع تصل إلى أدنى حدٍّ لها طوال العام؛ لذا يمكننا القول إنّ العمل بظاهر أحكام الشريعة والتقيّد بأداء الواجبات له أثرٌ نسبيٌّ لا يمكن إنكاره.

يقول الإمام الخميني رَحِمَهُ اللهُ بهذا الصدد: «تابعوا ملفّات الْجُناة والمحكومين في دور القضاء والمحاكم، هل ستجدون ملفّاً لشخصٍ ملتزمٍ بصلاته؟! فكلّ ما ستجدونه هناك لتاركي الصّلاة.

الصّلاة دعامة الشعب ... الهدف هو تطبيق الإسلام، وبالإسلام يصلح الإنسان، الصلاة مصنع لبناء وتهذيب الإنسان، الصلاة المتكاملة تُنقذ الأُمّة من الفحشاء والمنكر. فالّذين يرتادون مراكز الفساد هم تاركو الصّلاة، وأمّا المصلّون في المساجد فهم مستعدون لتقديم الخدمة لمجتمعهم»[1].

ثانياً: إنّ التكاليف الشرعيّة بذاتها تقتضي ابتعاد الإنسان عن ارتكاب الذّنوب، وبإمكانها أن تصونه من الانحراف؛ ولكنّ بعض الناس لم يلتزموا بروح العبادة وحقيقتها التي تُزكّي النفس، فتقيّدوا بظاهرها وحسب. وبالتأكيد فإنّ أداء هذه الأعمال، كالصلاة مثلاً، دون التقيّد بمضامينها ليس له تأثيرٌ ملموسٌ على العبد ولن تحفظه من ارتكاب المعاصي. لذلك صرّح المعصومون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بأنّ الصّلاة التي لا تنهى

(1) الإمام الخمينيّ رَحِمَهُ اللهُ، صحيفة نور (باللّغة الفارسيّة)، ج12، ص148.

عن الفحشـاء والمنكر مرفوضـةٌ ولا طائل منها. فقد رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «لا صَلاةَ لِمَن لَم يُطِعْ الصّلاةَ، وطاعةُ الصّلاةِ أنْ تَنهَى عَن الفحشاءِ والمنكرِ»[1].

وكذلـك قـال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَـن لـم تَنهَـهُ صلاتُـهُ عَـن الفحشـاءِ والمنكرِ لَم يَزدَدْ مِن اللهِ إلّا بُعداً»[2].

ورُوي عـن الإمام جعفر الصـادق عليه السلام أنّه قال: «مَن أحبَّ أنْ يعلَـمَ أَقُبِلَتْ صلاتُهُ أم لَـم تُقبَلْ، فَلْينظُرْ هَل مَنعَتهُ صلاتُهُ عَن الفحشاءِ والمنكرِ، فبِقَدرِ ما مَنَعتهُ قُبِلتْ منهُ»[3].

وقـال أيضـاً: «مَن اغتـابَ مسلمـاً أو مسلمـةً، لَـم يَقبلْ اللهُ صلاتَهُ وصيامَهُ أربعينَ يوماً وليلةً، إلّا أنْ يغفِرَ لهُ صاحبُهُ»[4].

كمـا رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام قولـه: «الصِّيامُ اجتنابُ الْمَحارِمِ، كما يمتنع الرّجلُ مِن الطّعامِ والشّرابِ»[5].

ونظـراً لأهميّة الواجبات الدينيّة ودَورها في عروج الإنسـان إلى حضـرة القُدس، نلاحظ أنّ أوّل خطوةٍ لإبليس عدوّ الإنسان اللّدود هي صدّه عن أدائها. أمّا إذا فشل هذا الملعون في إغواء العبد بتركها، فإنّه يسعى للتقليل من تأثيرها في نفسه ويوسوس

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج79، ص198.
(2) المصدر السابق.
(3) المصدر السابق.
(4) المصدر السابق، ج72، ص258.
(5) المصدر السابق، ج93، ص294.

لـه كي يقع في فخّ الرياء والغفلة عن الحقيقة، وبالتالي سـتفقد العبـادة جانبها التربويّ الذي يعينه على تزكية نفسـه. وعندما يفشـل عـدوّ الله في محاولته الثانيـة هذه، فإنّه يلجأ إلى شـتّى الحيَل والمكائد ليُفسـد ما أسـلف العبد من أعمالٍ صالحةٍ. لذا هناك الكثير من الصُّـلحاء والمؤمنين لا تـؤول عواقب أُمورهم إلـى خيـرٍ، فبعد أن أفنَـوا حياتهم بالخير والعبادة سـقطوا في الحضيض. وقد أشـار تعالى في كتابه الكريم إلى هذه الحقيقة حينما أكّد على أنّ مضـاعفة الحسـنة بعشر أمثالها يتحقّق بعد أن يحتفظ بها العبد إلى يوم الحساب، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1]. والواقع أنّ أداء عملٍ صالحٍ يتمّ في مرحلةٍ واحدةٍ وبسـرعةٍ نسبيّةٍ وقد لا يتطلّب جهداً مضنياً، إلا أنّ الأهمّ مـن ذلك قدرة العبـد على حفظه وعدم التفريـط به من خلال تحمّل المصاعب والصمود أمام وساوس الشّيطان الرجيم، كما قـال الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «**الإبقـاءُ علَى العملِ أشدُّ مِن العملِ**»[2].

(1) سورة الأنعام، الآية 160.

(2) السيّد عبد الله الجزائري، التحفة السنيّة، ص43.

مرافقة الأبرار

أهميّة الصحبة وآثارها

إنّ الإنسان بطبعه كائنٌ اجتماعيٌّ. وصلته بسائر أعضاء المجتمع لا تنقطع طوال حياته. وبالتأكيد فهو يتأثّر بالآخرين ويؤثّر فيهم. فهو في مختلف مراحل حياته، منذ نعومة أظافره حتّى شيخوخته، بحاجةٍ إلى رفيقٍ يُصاحبه ويؤنسه؛ ولا ريب في أنّ شخصيته تنصقل طبقاً لمن يعاشر، حيث قال الإمام عليّ عليه السلام في هذا الصدد: «**الْمَرءُ علَى دينِ خَليلِهِ، فَلْينظُرْ أحدُكُمْ مَن يُخالِلُ**»[1].

إنّ فقدان الرفيق الصّالح يُعدّ نقصاً، والذي لا يُرافق الأبرار والصُّلحاء يُحرم من نعمةٍ عظيمةٍ. لذلك فإنّ الإنسان لا يحتاج إلى ما يُحفّزه على كسب الأصدقاء، بل هو بحاجةٍ إلى مَن يُرشده لمعرفة المعايير الصحيحة التي تُعينه على اختيار الرفيق البارّ. وبالطبع فإنّ تعاليم ديننا ومعارفه تحفل بهذه الوصايا والإرشادات. فمِن نِعم الله تعالى على الإنسان

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج71، ص193.

أنّه أكرمه بالتوفيق لمرافقة الأخيار العقلاء والمؤمنين، وجعل مجالستهم بوّابةً لتهذيب نفسه وتزكيتها، لأنّ الركن الأساسيّ في هذه المجالسة هو الذّكر وفعل الخير واجتناب الرّذائل، وبالتالي فهي رفقةٌ تشذّب شخصيّته وتُصلح باطنه وتبدو آثارها في سلوكه وعباداته. وقد أكّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على هذه الحقيقة بقوله: «**أسعدُ النّاسِ مَن خالطَ كِرامَ النّاسِ**»[1].

وكذلك فإنّ مرافقة أصحاب السوء لا يتمخّض عنها سوى الابتلاء بالرّذائل والانحراف عن سبيل الرشاد. وكما لا يخفى على أحدٍ فإنّ أهمّ سببٍ في ضلال الناس وانحرافهم، ولا سيّما الشباب واليافعين، هو مصاحبة رفيق السوء الذي لا يفقه من الحياة إلا الشهوات والملذّات الزائلة. وكما ذكرنا آنفاً فإنّ الإنسان يتأثّر بما حوله ويكتسب طباع مَن يُخالط، فيصبح سلوكه مرآةً لسلوك أصحابه. وقد أشار تعالى في كتابه المجيد إلى هذا الأمر حينما صوّر لنا حال أهل الضلال يوم الحساب وهم يعتصرون ألماً لأنّهم رافقوا الفسقة وأعرضوا عن الصالحين، فقال: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾[2]. كما أكّد عزّ شأنه على أهميّة اتّخاذ رفيقٍ

(1) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج5، ص302.

(2) سورة الفرقان، الآيات 27 إلى 29.

صالحٍ واجتناب رفيق السوء، حيث أوصى نبيّه الكريم ﷺ بالإعراض عن مرافقة الغافلين الذين لا هدف لهم سوى الحياة الماديّة ومتاعها الزائل، وبالطبع فإنّ هذا الخطاب يشمل جميع المسلمين، فقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾[1]. وفي آيةٍ أُخرى أوصاه بمرافقة الأبرار الذين يزهدون في الدّنيا ولا يغفلون عن ذكره، حين قال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[2].

معايير انتخاب الأصحاب

وأولياء الله الصالحون على مرّ العصور بدورهم قد أكّدوا على ضرورة مراعاة أهمّ الأُسس في اختيار الجلساء والأصحاب في أحاديث كثيرةٍ، ووضعوا لنا أفضل السُّبل لذلك، ووضّحوا لنا هذه السُّبل في وصاياهم وإرشاداتهم الأخلاقيّة القيّمة، وفي نفس الوقت نبّهونا من مغبّة السقوط في مسالك الانحراف المتجسّدة بمرافقة أصحاب السوء، حيث نستلهم من أحاديثهم ووصاياهم المعايير الصحيحة التي تُعيننا على تمييز الغثّ من السمين. فالمعيار في اختيار الجليس الصالح لا بدّ وأن يكون حسب مبادئ الإيمان والضمير الحيّ والعلم والبصيرة والإخلاص والعمل

(1) سورة النجم، الآية 29.

(2) سورة الكهف، الآية 28.

للآخرة والمحبّة الصادقة والصراحة، وما إلى ذلك من أُصولٍ لا شائبة فيها. أمّا المعيار في تشخيص جليس السوء الذي يُعدّ وازعاً لاجتناب مصاحبته، فهو نفاقه وفسقه وانحرافه وحماقته ومخالفته للعقل وبخله وحسده وتملّقه، وما شابه ذلك من خصالٍ رذيلةٍ.

ونذكر فيما يلي بعض الأحاديث والأخبار بهذا الصدد:

أوّلاً: الأحاديث التي نستلهم منها المعايير الأساسيّة لمعرفة الرفيق الصالح:

روي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**خَيرُ مَن صحبتَ مَن وَلَّهَكَ بالأُخرَى وزَهَّدَكَ فِي الدُّنيا وأعانَكَ علَى طاعَةِ المَولَى**»[1].

قال الحواريون لعيسى عليه السلام: مَن نجالس؟ فقال عليه السلام: «**مَن يُذكِّرُكُمُ اللهَ رُؤيَتُهُ ويُرَغِّبُكُمْ فِي الآخِرةِ عمَلُهُ ويَزيدُ فِي مَنطِقِكُمْ علمُهُ**»، وقال لهم: «**تَقرَّبُوا إلَى اللهِ بالبُعدِ مِن أهلِ المعاصِي، وتَحبَّبُوا إلَيه ببُغضِهِمْ، والتَمِسُوا رِضاهُ بسخَطِهِمْ**»[2].

روي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**صَديقُكَ مَن نهاكَ، وعَدوُّكَ مَن أغراكَ**»[3].

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**أحَبُّ إخوانِي إلَيَّ مَن أهدَى إلَيَّ عُيوبِي**»[4].

روي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**الصَّديقُ مَن كانَ ناهيَاً عَن الظُّلمِ والعُدوانِ مُعيناً علَى البِرِّ والإحسانِ**»[5].

(1) التميمي الآمدي، غُرَر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص430.
(2) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج71، ص189.
(3) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج5، ص311.
(4) الحسن بن شعبة الحرّاني، تحف العقول، ص366.
(5) التميمي الآمدي، غُرَر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص414.

ثانياً: الأحاديث التي نستلهم منها المعايير الأساسيّة لمعرفة رفيق السوء:

روي عن الإمام عليّ عليه السلام: «فَسادُ الأخلاقِ بمُعاشَرةِ السُّفَهاءِ، وصَلاحُ الأخلاقِ بمُنافَسةِ العُقَلاءِ»[1].

وروي عنه كذلك: «مُجالَسةُ أبناءِ الدُّنيا مَنساةٌ للإيمانِ قائدةٌ إلَى طاعَةِ الشَّيطانِ»[2].

وروي عنه أيضاً: «إيّاكَ ومُصاحَبةَ الفُسّاقِ، فإنَّ الشَّرَّ بالشَّرِ مُلحقٌ»[3].

روى أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن أبيه الباقر عليه السلام أنّه قال: «قالَ لي عليُّ بنُ الحسينِ عليهما السّلام: يا بُنَيَّ، انظُرْ خمسةً فلا تُصاحِبهُمْ ولا تُحادِثهُمْ ولا تُرافِقهُمْ في طريقٍ.

فقلتُ: يا أبَه، مَن هُم؟

قال: إيّاكَ ومُصاحبةَ الكذّابِ، فإنَّهُ بِمنزِلَةِ السَّرابِ، يُقَرِّبُ لكَ البعيدَ ويُباعِدُ لكَ القَريبَ.

وإيّاكَ ومُصاحبةَ الفاسِقِ، فإنَّهُ بائعُكَ بأكلةٍ أو أقلّ مِن ذلكَ.

وإيّاكَ ومُصاحبةَ البَخيلِ، فإنَّهُ يَخذِلُكَ في مالِهِ أحوجُ ما تكونُ إليهِ.

وإيّاكَ ومُصاحبةَ الأحمَقِ، فإنَّهُ يريدُ أنْ يَنفعَكَ فيضُرُّكَ.

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص82.

(2) تصنيف غرر الحكم و درر الكلم، ص 434.

(3) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج71، ص199.

وإيّاكَ ومُصاحبةَ القاطعِ لرَحِمِه، فإنّي وجدتُهُ مَلعونَاً في كِتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ فِي ثلاثة مواضع»[1].

كما روي عن الإمام عليّ عليه السلام: «إيّاكَ ومعاشرةَ الأشرارِ، فإنَّهُم كالنّارِ مُباشَرَتُها تُحرِقُ»[2].

وفي موضعٍ آخر قال عليه السلام: «مُجالسَةُ أهلِ الهوَى مَنساةٌ للإيمانِ ومَحضَرةٌ للشَّيطانِ»[3].

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «احذَرْ مِن النّاسِ ثلاثةً، الخائنَ والظَّلومَ والنَّمامَ، لأنَّ مَن خانَ لَكَ خانَكَ، ومَن ظَلَمَ لَكَ سيَظلِمُكَ، ومَن نَمَّ إلَيكَ سيَنُمُّ عَليكَ»[4].

روي عن الإمام عليّ عليه السلام: «الصَّديقُ الصَّدوقُ مَن نصَحَكَ فِي عَيْبِكَ وحَفَظَكَ فِي غَيْبِكَ وآثَرَكَ علَى نَفْسِهِ»[5].

وقال عليه السلام في مناسبةٍ أُخرى: «أكثرُ الصَّوابِ والصَّلاحِ فِي صُحبَةِ أُولِي النُّهَى والألبابِ»[6].

وقال عليه السلام أيضاً: «قارِنْ أهلَ الخيرِ تَكُنْ مِنهُمْ، وباينْ أهلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنهُمْ»[7].

(1) المصدر السابق، ص196.
(2) التميمي الآمدي، غُرَر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص431.
(3) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة رقم 86.
(4) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج5، ص304، نقلاً عن بحار الأنوار، ج75ن ص230.
(5) المصدر السابق، ص311، نقلاً عن غُرَر الحِكَم ودُرَر الكلِم.
(6) المصدر السابق، ص301، نقلاً عن غُرَر الحِكَم ودُرَر الكلِم.
(7) المصدر السابق، ص302، نقلاً عن بحار الانوار، ج71، ص185.

العزم ورباطة الجأش

موقعية الإرادة في السلوك

إنّ الأعمـال العظيمة والقرارات الحاسـمة بطبيعتها تحتاج إلى إرادةٍ حديديّةٍ وعزمٍ راسـخٍ، فلا يمكن بلوغ الهدف وتحقيق المقصـود بالضّعف والاضـطراب. ولو كانت شخصيّة الإنسان هزيلةً وإرادته ضعيفةً، سـوف تنهار عند مواجهة أبسط مشكلةٍ وتستسـلم دونما أيّة مقاومةٍ، فتنصرف عمّا شرعت به من عملٍ وتنجرف مع تيار الانحراف ليقودها إلى الهاوية.

ولا يجدر بالإنسـان أن يسـتهين بمحاربة أعظـم عدوٍّ له، ألا وهو جموح نفسـه الطاغيـة وأهواؤها المغرية، فجهـاده الأكبر الـذي هـو شـعاره في حياتـه الدّنيويّـة والـذي يأخذ بيـده إلى الدرجات العُلى في حياته الأُخرويّة، يُعتبر أهمّ صـراعٍ يخوضـه ما دام حيّاً؛ وبالطبع فهو لن ينجح في مساعيه ما لم تكن إرادته صلبةً وعزيمته راسخةً. فالإنسان المتزلزل الذي لا يستقرّ أمره علـى رأي والذي يُداري الآخرين على حسـاب الأُصـول والقيَم، لا يمكنـه مقارعـة عدوّه اللّدود وسـائر المخاطـر المحدقة به،

وبالتالي سيُسحق في ميادين الجهاد الأكبر.

لـذا، عندمـا يُشـخّص ابـن آدم صـفاته الرّذيلـة التي هي وبـاءٌ يوقعه في مهالك الآثام والمعاصـي، يجـب عليه أن ينهض لمكافحتهـا بعزمٍ راسـخٍ ورباطة جأشٍ، بل عليـه أن يتّقيها قبل أن يُبتلـى بهـا. فالإرادة الصّـلبة هـي أوّل خطـوةٍ يخطوها في رحلته المضـنية من عالم المادّة الفاني إلى عالم الروح الأزليّ، حيث يتمكّن من خلالها كسـر شوكة الشّيطان وإحباط مساعيه الدنيئـة؛ فهـذا المدحور يُسـخّر خيله وجنده في هـذه المرحلة لثني الإنسان عن عزمه وقطع الطريق عليه، ويحاول زرع اليأس في نفسه وتعظيم الصعاب أمامه ويوسوس له أن لا حيلة له سوى الانصهار مع الآخرين والسَّير في ركبهم، أو أنّه يخدعه بارتكاب الذّنـوب ما دام باب التوبة مفتوحاً، مع مختلف أنواع الوسـاوس التي تنصبّ في صدّه عن مكابدة أطماع النفس الأمّارة لإفشاله فـي ميـدان الجهاد الأكبر. وخير مثالٍ على ذلك قصّـة سـيّدنا آدم عليه السلام عندما ضـعفت إرادته أمام إبليس ونسي عهده الذي قطعه مع الله تعالى، فسـقط في فخّ مكـره وإغوائه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾[1].

ويعلّمنا سـيّد الموحّدين عليّ بـن أبي طالب عليه السلام أنّ علاج ضـعف النفسـ وفتورها إنّما يكـون ناجعاً لو أنّ العبد رسّـخ من

(1) سورة طه، الآية 115.

عزمه وصـمّم على إرادته، حيث قال: «فَتَداوَ مِن داءِ الفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بعَزِيمَةٍ، ومِن كَرَى الغَفْلَةِ فِي ناظِرِكَ بيَقَظَةٍ، وكُنْ للّهِ مُطِيعاً وبذِكْرِهِ آنِساً»[1]. كما قال في موضعٍ آخر: «أَصلُ العَزمِ الحزمُ، وثمرَتُهُ الظَّفَرُ».[2] وقال أيضاً: «مَن ساءَ عَزمُهُ رجَعَ علَيهِ سَهمُهُ»[3].

ويدعو الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام اللّه تعالى أن يرزقه العزم الراسخ والإرادة القويّة بقوله: «وأعِنّي بعَزمِ الإرادَةِ»[4].

ونقرأ في أحد أدعية شهر رجب أنّ أفضل زادٍ يتزوّد به السالك إلى اللّه تعالى هو العزم والإرادة: «وقَد علِمتُ أنَّ أفضلَ زادِ الرّاحِلِ إلَيكَ عَزمُ إرادةٍ يَختارُكَ بها»[5].

العزيمة عند الإمام الخميني قدس سره

ويوضّح لنا معلّم الأخلاق الكبير السيّد الإمام الخمينيّ رحمه الله معنى العزم نقلاً عن أحد مشايخه: «إنَّ العزمَ هو جوهرُ الإنسانيّةِ ومعيارُ ميزةِ الإنسانِ، وإنّ اختلافَ درجاتِ الإنسانِ باختلافِ درجاتِ عزمِهِ». ثمّ يصف رحمه الله العلاجَ لنا وكأنّه طبيبٌ حاذقٌ وحكيمٌ مجرّبٌ، فيقول: «أيُّها العزيز، اجتهد لتصبح

(1) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة رقم 223.
(2) عبد الواحد التميميّ الآمديّ، غرر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص476.
(3) المصدر السابق، ص92.
(4) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص153.
(5) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج82، ص 257.

ذا عـزمٍ وإرادةٍ، فإنّك إذا رحلـتَ من هذه الدُّنيا دون أن يتحقّق فيك العزم (على ترك المحرّمات) فأنت إنسانٌ صوريٌّ بلا لُبٍّ، ولن تُحشر في ذلك العالم (عالم الآخرة) على هيئة إنسانٍ، لأنّ ذلك العالم هو محلّ كشف الباطن وظهور السّريرة، وإنّ التجرّؤ على المعاصي يُفقد الإنسان، تدريجيّاً، العزمَ ويختطِف منه هذا الجوهر الشريف.

إذاً، تجنّب يا أخي المعاصـي، واعزِم على الهجرة إلى الحقّ تعالى، واجعل ظاهرك ظاهراً إنسـانيّاً، وادخل في سـلك أرباب الشّـرائع واطلب من اللّه تعالى في الخلوات العونَ على بلوغ هذا الهدف واستشـفع برسـول اللّه صـلّى اللّه عليه وآله وسلّم وأهل بيته عليهم السّـلام حتّـى يوفّقك اللّه على ذلك ويعصـمك من المزالق التي تعترضك، لأنّ هناك مزالق كثيرة تعترض الإنسان أيّام حياته، ومن الممكن أنّه في لحظةٍ واحدةٍ يسـقط في مَزلقٍ مُهلكٍ يعجز من السّعي لإنقاذ نفسه، بل قد لا يهتمّ بإنقاذ نفسه، بل ربّما لا تشمله حتّى شفاعة الشّافعين. نعوذ باللّه منها»[1].

(1) الإمام الخمينيّ رَحِمَهُ اللَّهُ، الأربعون حديثاً، ص7 و8.

محاسبة النَّفس

سوء الظن بالنفس شرط

الدّنيا سوقٌ والعقل فيها تاجرٌ ثروته العمر، وأفضل ربحٍ يُحقّقه ابن آدم في هذه التجارة هو عمله الصالح وأخلاقه الفاضلة. أمّا أسوأ خسارةٍ فيها فهي الآثام والمعاصي واتّباع أهواء النفس التي ستُرهقه في حياته الآخرة؛ لذا يجب على العبد أن لا يُحسن الظنّ بالنّفس وأن لا يطمئنّ لها لأنّها تقوده إلى السوء والعصيان. قال تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾[1].

فالعبد لا يفوز بنعيم الآخرة ومقامها الرفيع إلا إذا خاف ربّه وصان نفسه الجامحة بقوّة عقله وحاسبها على كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ تقترفها، وهذه قاعدةٌ ثابتةٌ نستلهمها من كتاب الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾[2].

(1) سورة يوسف، الآية 53.

(2) سورة النّازعات، الآيتان 40 و41.

مراحل محاسبة النفس

وقد وضـع علماء الأخلاق أربع مراحل للسيطرة على النّفس وتهذيبهـا، وأطلقوا عليها (مرابطة العقل للنّفس). ويؤكّد هؤلاء العلماء على أنّ الإنسـان مكلّفٌ بالسـيطرة على نفسه ورغباتها، وذلك بأن يعاهدها على عدم المعصـية ويُقيّدها بشروطٍ لتلبية دعواتهـا وأن لا يغفـل عنها طرفـة عينٍ، فيكون لها بالمرصـاد ويحاسـبها على كلّ ما تفعل فيوبّخها على كلّ فعلٍ قبيحٍ تقترفه. فهذه هي المراحل الأربع التي نذكرها فيما يلي بالتّفصيل:

1- **معاهدة النّفس على عدم ارتكاب الذّنوب**

ينبغي للإنسان عند شروعه في أيّ عملٍ وببداية كلّ يومٍ من أيّام حياته، أن يُعاهد نفسَه على ألّا يجتاز الخطّ الأحمر وألّا يقترب من المنطقة المحظورة عبر اقتراف الذّنوب والمعاصي أو كلّ فعلٍ من شأنه تهميش العقل ووقوعه في المحذور. فهذه الأمور تُفسد ثمرة الحياة وتجعل العبد متمرّداً وعاصياً لعقله وربّـه. في هـذه المرحلة يجب على العقل أن يُخاطب جوارح الإنسان وجوانحه كافّةً ويُعاتبها على ما تفعله ويطلب منها الالتزام بواجباتها. مثلاً، عليه أن يطلب من اللّسان الامتناع عمّا هو محظورٌ عليه، كالغيبة والتهمة والنميمة والسّباب وإهانة الآخرين واحتقارهم، وما إلى ذلك من قبائح لفظيّة؛ وفي نفس الوقت لا بدّ وأن يحفّزه على ذكر اللّه تعالى وخدمة عباده.

2- مراقبة النّفس وعدم الغفلة عنها

عندما يعاهد الإنسان نفسَه على عدم ارتكاب الذّنوب، وعندما يفرض ما يلزم من شروط على جميع الجوارح والجوانح، فإنّ العقل حينها يكون كالمولى الذي يُشرف على أعمال مَن هم تحت يده، أي يُراقب النفس ليطمئنّ من أنّها التزمت بعهدها، ويصونها كي لا تقع في حبائل الشيطان الرجيم. فلا بدّ للعقل أن يكون للنّفس بالمرصاد ليسيطر على نزعاتها وأفعالها في كلّ زمانٍ ومكانٍ، فيحذّرها متى ما حاولت نقض عهدها.

فالإنسان لا ينفكّ عن ثلاثة أحوالٍ، إمّا الطاعة وإمّا المعصية وإمّا الانهماك بالمباحات. ومراقبة النّفس حينما تكون منشغلةً بالطاعة، بمعنى التأكّد من خلوص نيّتها وعدم تملّصها عن تنفيذ الأوامر، ومراقبتها عند المعصية بمعنى ترغيبها بالتوبة وتحفيزها على ترك الذّنوب، وأمّا مراقبتها في الأعمال المباحة فيعني تشجيعها على مراعاة الأُصول الدينيّة وهدايتها إلى أعمال الخير وطاعة الله تعالى.

إذن، لا ينبغي للعقل أن يثق بالنّفس وعليه أن يوقن بأنّها لا تلتزم بمواثيقها دون إشرافه ومراقبته، لأنّ الثّقة بها تعني منح الشيطان فرصةً ذهبيّةً لأن يُسخّرها لمآربه الدنيئة. قال الإمام عليّ عليه السلام في هذا الصدد: «**الثِّقَةُ بالنَّفسِ مِن فُرَصِ الشَّيطانِ**»[1].

(1) عبد الواحد التميميّ الآمديّ، غرر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص235.

3- محاسبة النّفس بعد كلّ عملٍ

يجب على العقل أن يحاسب النّفس بصرامةٍ بعد كلّ قولٍ أو فعلٍ، ويطلب منها تبريراً عمّا فعلت، أي هل أنّها التزمت بأداء تكاليفها ولم تنقض عهدها؟ وعليه أن يسألها عمّا فعلت ولماذا فعلته، فإن أيقن أنّها تؤدّي وظائفها وعباداتها على أكمل وجهٍ، وجب عليه تشجيعها للاستمرار في ذلك وأن يشكر الله تعالى الذي وفّقه لصالح الأعمال. أمّا لو لاحظ أنّها قد نقضت عهدها وارتكبت معصيةً، فلا يجوز له تركها على حالها، بل لا بدّ له من تشديد مراقبته لها.

وهذه المرحلة في الواقع هامّة للغاية، لدرجة أنّنا أحياناً نُعبّر عن المراحل الأربع برمّتها بـ(محاسبة النّفس)، والأئمّة المعصومون عليهم السلام بدَورهم قد أكّدوا على أهميّتها في أحاديث كثيرة، نذكر منها ما يلي:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكيَسُ الكَيِّسينَ مَن حاسَبَ نفسَهُ وعمِلَ لما بعدَ الموتِ، وأحمَقُ الحمقَى مَن اتَّبَعَ هَواهُ وتَمنَّى علَى اللهِ الأمانِيَ»[1].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يكونُ العبدُ مؤمناً حتَّى يُحاسبَ نفسَهُ أشدَّ مِن مُحاسَبةِ الشَّريكِ شريكَهُ والسيِّدِ عبدَهُ»[2].

(1) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج2، ص405.

(2) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص72.

وعنه أيضـاً: «يا أبا ذَرٍّ، حاسِبْ نفسَكَ قبلَ أنْ تُحاسَبْ، فإنَّهُ أهوَنُ لحِسابِكَ غَداً»[1].

عـن الإمـام علـيّ عليه السلام: «قَيِّـدوا أنفسَكُـمْ بالمحاسَبَـةِ واسلُكُوها بالمخالَفَةِ»[2].

وعنه أيضـاً: «مَن حاسَـبَ نفسَهُ وقـفَ علَى عُيوبِـهِ وأحاطَ بذُنوبِهِ واستقالَ الذُّنوبَ وأصلَحَ العُيوبَ»[3].

كما أكّـد أمير المؤمنيـن عليه السلام أنّ ثمرة محاسـبة النّفس، استقامتها، حيث قال: «ثمَرَةُ المحاسَبَةِ صَلاحُ النَّفْسِ»[4].

عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «لَيسَ مِنّا مَن لَم يُحاسِبْ نفسَهُ فِي كُلِّ يَومٍ»[5].

ومن الجدير بالذّكر أنّ العبد لو ألفى نفسه وقد أدّت واجباتها ولـم تنقض عهدها، عليه أن يحذر من الوقوع في شـرك العُجُب والغـرور، لأنّ هـذا الإحسـاس في الحقيقة نوعٌ مـن الانحراف؛ بل لا بدّ له أوّلاً من شـكر ربّه وتحفيز نفسـه على القيام بأعمال خيرٍ أُخـرى، وثانياً عليه ترغيبها باتّبـاع العقل والوحي ومن ثمّ الاستمرار في سيرها نحو العُلا دون أن يغترّ بذلك.

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج74، ص83.
(2) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج2، ص405.
(3) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج2، ص409، نقلاً عن غرر الحكم ودُرر الكلم.
(4) عبد الواحد التميميّ الآمديّ، غرر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص235.
(5) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص72.

وأمّا لو ألفى نفسه وقد عصت الأوامر ولم تلتزم بتكاليفها، فعليه أن يُضيّق عليها الخناق لترك ذلك ولا ينبغي له أن ييأس من رَوح الله تعالى.

4- توبيخ النّفس عند ارتكابها القبائح

هذه المرحلة هي الأخيرة في مسيرة تهذيب النّفس، فإذا وجد المكلّف نفسَه بعد محاسبتها أنّها التزمت بعهدها وأدّت واجباتها، عليه أن يشكر الله تعالى الذي وفّقه لذلك وأن يستمرّ في مراقبتها. ولكنّه إذا وجدها قد نقضت العهد وارتكبت ذنوباً، يجب عليه أن يوبّخها بشدّةٍ ويئنّ أنيناً ويُخاطبها قائلاً: ويحكِ لقد أهلكتني! ألم تخشَي ربَّكِ؟! ألم يردعك الحياء منه؟! يا لكِ من خائنةٍ، لقد نقضتِ العهد ولا بدّ أن تتالي جزاءكِ العادل، لذا سأُروّضك وأُرغمك على ترك الذّنب وأسوقك نحو الطاعة.

ويجب على العقل في هذه المرحلة أن يُجبر النّفس على القيام ببعض الأعمال الشاقّة في حدود الشّرع، كحرمانها من بعض المباحات وإبعادها عن مجالس السوء. قال الإمام عليّ عليه السلام: «**مَن وبَّخَ نفسَهُ على العُيوبِ ارتَدعَتْ عَن كثيرِ الذُّنوبِ**»[1]، وقال أيضاً: «**مَن استدامَ رِياضَةَ نَفسِهِ انتَفَعَ**»[2].

(1) عبد الواحد التميميّ الآمديّ، غرر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص238.
(2) المصدر السابق.

الأُنس بكتاب الله وتدبّر آياته

حياة القلب

إنّ الأُنس بكتاب الله تعالى بتدبّر آياته يُعدّ من أهمّ أسباب يقظة القلب، لأنّ كلامه عزّ وجلّ سدٌّ منيعٌ لا يتزلزل يحفظ العبد من الرّغبات الحيوانيّة ويصونه من هجمات الشياطين. فالقرآن الكريم أفضل ناصرٍ يُعين ابن آدم على تزكية نفسه وتهذيب أخلاقه، كما أنّه يرسّخ القيَم الأصيلة ويقوّي جبهة العقل مقابل جبهة الشّيطان الغويّ، فيدحضه ويجعل كلمته السُّفلى. وقد أكّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على هذه الحقيقة بقوله: **«لَيسَ شَيءٌ علَى الشَّيطانِ أشَدَّ مِن القراءةِ فِي المصحَفِ نَظراً، والمصحَفُ فِي البيتِ يَطردُ الشَّيطانَ»**[1].

لذلك لو كان القرآن حاضراً في قلب إنسانٍ، سوف لا يكون للشّيطان وجنوده مكانٌ فيه أبداً؛ وكذا هو الحال بالنسبة إلى الدّار التي يُتلى فيها، حيث تتردّد عليها الملائكةُ فيعمّها النور الربّانيّ ولا يبقى فيها موضعٌ للشّياطين، وبالتالي ستُصبح بيئةً

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج89، ص201.

صالحةً للحسنات والفضائل. وقد وصفها الإمام عليّ عليه السلام وصفاً بليغاً وقارنها مع الدّار التي لا يُتلى فيها كتاب الله حين قال: «البيتُ الَّذي يُقرَأ فيهِ القرآنُ ويُذكرُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهِ، تَكثُرُ بركتُهُ وتحضرهُ الملائكةُ وتهجرهُ الشَّياطينُ ويُضيءُ لأهلِ السَّماءِ كما تُضيءُ الكواكبُ لأهلِ الأرضِ. وإنَّ البيتَ الَّذي لا يُقرأ فيهِ القُرآنُ ولا يُذكرُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهِ تَقلُّ بركتُهُ وتهجرهُ الملائكةُ وتحضرهُ الشَّياطينُ»[1].

فالأُنس بكلام الله تعالى لا يقطع دابر الشّيطان ويُحبط مساعيه الدنيئة وحسب، بل يرفع من مدى استعداد الإنسان لبلوغ أعلا درجات السعادة ويُطهّر قلبه من صدَأ الذُّنوب ويُلهمه نوراً يهتدي به إلى الصّراط المستقيم برفقة جندِ الله الصّالحين. فقد رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ هذِهِ القُلوبَ تَصدَأ كما يَصدَأ الحديدُ»، فقيل: يا رسول الله فما جلاؤها؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «تِلاوَةُ القُرآنِ»[2].

كما نقل كثير بن سُليم عنه صلوات الله عليه وآله قوله: «يا بُنَيَّ، لا تَغفَلْ عَن قِراءَةِ القُرآنِ، فإنَّ القُرآنَ يُحيي القلبَ ويَنهَى عَنِ الفَحشاءِ والمنكَرِ والبَغي»[3].

إنّ كتاب الله تعالى هو فُرقانٌ بين الحقّ والباطل، والخير

(1) محمّد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، ج2، ص610.
(2) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج8، ص81.
(3) المصدر السابق.

والشّـر، والسّـعادة والشّـقاء، ولو اقتدى به العبد سـيتمكّن من تمييز سبيل الهدى عن سـبيل الضّلال وسيتذوّق حلاوة العبادة وسيكتسـب المعرفة التي هي زاده في سـفره المضني من عالم المـادّة الفاني إلى عالم الـروح الأزليّ. فالاسـتماع إلى القرآن الكريم يجعل العبد جليساً لبارئه تعالى ويهديه إلى سواء السّبيل، وفي الوقت ذاته يُنجيه من مكائد أعدائه المتربّصين به في كلّ وليجةٍ. فمَن يأنس بالقرآن ويُحادث ربَّه جلّ شـأنه فسـتعمّ ذاتَه بركةٌ عظيمةٌ وينعم قلبُه بفيض نور الله، وعندها لن يتسـنّى لأيّ كائنٍ كان سلب قلبه أو السيطرة عليه.

فضائل القرآن وآثاره

وقد تطرّق سيّد البلغاء والمتحدّثين عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى فضـائل القـرآن الكريم وبركات تلاوته، فقـال: «اعْلَمُوا أَنَّ هـذا القُـرآنَ هُوَ النّاصِحُ الَّذي لا يَغُشُّ والهـادي الَّذي لا يُضِلُّ والْمُحَـدِّثُ الَّذي لا يَكْذِبُ، وما جالَسَ هذا القُرآنَ أَحَدٌ إلّا قامَ عَنْهُ بِزِيادَةٍ أو نُقْصانٍ؛ زِيادَةٍ فِي هُدًى ونُقْصانٍ مِنْ عَمًى.

واعْلَمُـوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْـدَ القُرآنِ مِنْ فاقَةٍ ولا لِأَحَدٍ قَبْـلَ القُـرآنِ مِنْ غِنًـى، فَاسْتَشْفُوهُ مِـنْ أَدْوائِكُـمْ واسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوائِكُمْ فَإِنَّ فِيهِ شِفاءً مِنْ أَكْبَرِ الدّاءِ، وهُوَ الكُفْرُ والنِّفاقُ والْغَـيُّ والضَّـلالُ؛ فَاسْأَلُـوا اللهَ بِـهِ وتَوَجَّهُـوا إِلَيْـهِ بِحُبِّـهِ ولا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ ما تَوَجَّهَ العِبادُ إِلَى اللهِ بِمِثْلِهِ.

واعْلَمُوا أنَّهُ شافِعٌ مُشَفَّعٌ وقائِلٌ ومُصَدَّقٌ، وأنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ القُرآنُ يَوْمَ القِيامَةِ شُفِّعَ فِيهِ»[1].

وقد أوصانا أئمّتنا الكرام عليهم السلام بتعطير أفواهنا بآياتٍ من القرآن الكريم كلّ يومٍ وتلاوتها بتدبّرٍ كي لا نبتعد عن طريق الهدى ونجتنب الزّلل والانحراف، فهو كلام الله تعالى وحبله المتين الذي ينبّهنا من غفلة قلوبنا. فالغفلة هي أساس كل ذنبٍ وخطيئةٍ، ولا علاج لها سوى تلاوة كتاب الله وتدبّر مفاهيمه السامية، فهو حياةٌ للقلوب ونجاةٌ للنّفوس من عتمة الضلال. قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«أفضَلُ الذِّكرِ القُرآنُ، بِهِ تُشرَحُ الصُّدُورُ وتَستَنيرُ السَّرائرُ»**[3].

إنّ القرآن نورٌ يقشع ظُلمات النُّفوس وبلسمٌ يداوي أمراضها وطهارةٌ لها من العيوب والشّوائب؛ فلا يضلّ مَن تمسّك به أبداً وسيكرمه الله برحمته الواسعة، حيث قال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4]. وقال رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَن لَم يَستشفِ بالقُرآنِ فَلا شَفاهُ اللهُ»**[5].

(1) نهج البلاغة، الخطبة رقم 176.
(2) سورة محمّد، الآية 24.
(3) عبد الواحد التميميّ الآمديّ، غرر الحِكم ودُرَر الكلِم، ص189.
(4) سورة الإسراء، الآية 82.
(5) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج89، ص186.

أمّا الذين زلّوا عن سبيل الهدى لكنّ أبواب قلوبهم لم تُقفل بالكامل وبقيت فيها قدحةُ أملٍ، فعلى الرّغم من انغماسهم في المعاصي والآثام واتّباعهم وساوس إبليس اللّعين، لربّما يرتدعون ويكفّون عن غيّهم فيسلكون سبيل الخير حينما يتلون كلام الله تعالى ويتأمّلون في آيات الوعد والوعيد. وقصّة الفُضيل بن عياض التي تناقلها العلماء خير دليلٍ على ذلك؛ فقد كان الفُضيل بن عياض زاهداً ثقةً رَوَى عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام. ويُحكَى أنّهُ كان في أوّلِ أمرهِ يَقطَعُ الطَّريقَ بينَ أبيوَرد وسَرَخس. وذات يوم عشِقَ جاريةً، فبينما كان يَرتقي الجدرانَ إليها سمِع تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]. فقالَ: يا ربِّ قَدْ آنَ؛ فرجَعَ وآوَى إلَى خَربَةٍ فإذا فيها رفقةٌ، فقالَ بعضُهُم: نرتَحِلُ، وقال بعضُهُم: حَتَّى نُصبحَ، فإنَّ فُضَيلاً علَى الطَّريقِ يقطَعُ علَينا. فتابَ الفُضيل وأمِنَهُمْ.

وتلاوة كتاب الله في مرحلة الشّباب أكثر وقعاً في النّفس من سائر مراحل الحياة، حيث تُشذّب شخصيّة العبد وتأخذ بيده نحو الكمال وتجعله أهلاً لأن يكون في زمرة كرام خلق الله الذين لا يجد الشّيطان إلى قلوبهم سبيلاً، فقد رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَن قَرَأ القُرآنَ وهُو شابٌّ مؤمنٌ، اختلَطَ القُرآنُ بلحمِهِ ودَمِهِ، وجعلَهُ اللهُ معَ السَّفرَةِ الكِرامِ

(1) سورة الحديد، الآية 16.

البَررَةِ، وكانَ القُرآنُ حَجيزاً عَنهُ يَومَ القِيامَةِ»[1].

وبالطبع فإنّ قراءة القرآن لا تُعين الإنسان على ترك الذُّنوب وحسب، بل تشفع له عند الله تعالى كي يُغفر له ما ارتكب من ذنوبٍ، وكذلك سينال بها رضاه ورحمته، فقد خاطب نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الصحابيَّ الجليل سلمان الفارسيّ قائلاً: «يا سلمانُ عَليكَ بقراءَةِ القُرآنِ، فإنَّ قراءَتَهُ كَفّارةٌ للذُّنوبِ وسِترٌ مِن النّارِ وأمانٌ مِن العَذابِ، ويُكتَبُ لِمَن يقرأ بُكُلِّ آيةٍ ثوابَ مائةِ شَهيدٍ ويُعطَى بكُلِّ سورةٍ ثوابَ نَبيٍّ مُرسَلٍ، وتَنْزِلُ على صاحِبِهِ الرَّحمةُ وتَستغفِرُ لَهُ الملائكَةُ، واشتاقَتْ إليهِ الجنَّةُ ورَضيَ عَنهُ المولَى، وإنَّ المؤمنَ إذا قرأ القُرآنَ نظَرَ اللهُ إليهِ بالرَّحمةِ»[2].

وروي عن الإمام عليّ عليه السلام: «اقرَؤوا القُرآنَ واستظهِرُوهُ، فإنَّ اللهَ تعالى لا يُعذِّبُ قَلباً وَعَى القُرآنَ»[3].

فعظماء ديننا والسّالكون سبيل السعادة قد أدركوا عظمة القرآن الكريم وفائدة تلاوته وعدم الانقطاع عنه، لذا لم يغفلوا عنه طرفة عينٍ حيث نلمس ذلك جليّاً في سيرتهم، كما أنّهم أوصوا النّاس بعدم الغفلة عنه وحذّروهم مغبّة إهماله. قال تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ

(1) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج2، ص603.
(2) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج89، ص17.
(3) المصدر السابق، ص19.

وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾[1].

نسأل الله العليّ القدير أن يمنّ علينا بتلاوة كتابه ويُذيقنا حلاوة ذكره ويُكرمنا بنور هداه والعمل بأحكامه، فلا لذّة كوقوف العبد بين يدي ربّه موقف المخاطب. وعندما كان الإمام جعفر الصادق عليه السلام يتلو القرآن، كان يدعو الله قائلاً: «**اللّهُمَّ ارزُقنا حَلاوةً فِي تِلاوَتِهِ ونَشاطاً فِي قِيامِهِ ووَجَلاً فِي تَرتيلِهِ وقُوَّةً فِي استعمالِهِ فِي آناءِ اللَّيلِ وأطرافِ النَّهارِ**»[2].

(1) سورة المزّمل، الآية 20.

(2) محمّد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، ج2، ص576.

الدُّعاء وطلب العَون من الله تعالى

سلاح المؤمن

لا يمكن للعبد النجاة من الرّذائل الخلقيّة وانحراف النّفس الأمّارة ووساوس الشّيطان بالاعتماد على عقله وحسب، بل لا بدّ له أن يستعين بالله تعالى، فلا يُوفَّق لسلوك سبيل الرّشاد ولا يُفعم قلبه بنور الهدى ما لم يلجأ إلى بارئه بالدّعاء والإنابة. فالتضرّع إليه جلّ شأنه يُزيح حجُب النسيان وينتشل النّفس من غَياهب الضّلال ويجعلها تنتعش بفطرتها السليمة التي لا شائبة فيها.

وبالطبع فإنّ مفهوم الدّعاء واسعٌ والحديث عنه مترامي الأطراف ولا يمكن استيفاؤه هنا، إلا أنّنا نحاول أن نتطرّق إلى جانبٍ هامٍّ منه، وهو دَوره التربويّ وتأثيره في هداية البشر.

الدّعاء يعني الانقطاع إلى المعبود وطلب التقرّب منه والتوفيق للطاعة والبُعد عن المعصية، وكلّما انقطع العبد إلى ربّه أكثر ووثّق الصّلة به بالتضرّع والرّجاء فسوف ينعم بفيضٍ عظيمٍ ويتقرّب إليه أكثر.

والدّعاء يُعين العبد في ميدان الجهاد الأكبر لسببين، هما:

1- لا يُوفّق أحدٌ لفضيلة الدُّعاء والتضرّع ما لم يؤيّده الله تعالى، وبالتأكيد فإنّ هذا التوفيق يمكن أن يناله العبد من خلال دعائه.

2- الدّعاء يُنير القلب ويوقظه من غفلته التي هي أساس كلّ انحرافٍ ورذيلةٍ.

وقد أكّد الإمام عليّ عليه السلام على أهميّة الدّعاء في النّجاة من الغفلة قائلاً: «وأكثِرْ الدُّعاءَ تَسلَمْ مِن سُورَةِ الشَّيطانِ»[1].

والتضرّع إلى الله تعالى وطلب العون منه سيفٌ بتّارٌ يقطع دابر الشّيطان ويقضي على نزوات النّفس الأمّارة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدُّعاءُ سِلاحُ المؤمنِ وعَمودُ الدِّينِ ونُورُ السَّماواتِ والأرضِ»[2].

فتعساً لمن حُرم من هذا السّلاح الذي يُعدّ سدّاً منيعاً أمام صولات إبليس وجنوده، ولم يغتنم الفرصة لينعم ببركة خطاب بارئه. مثَلُ الإنسان في الحياة الدُّنيا كثمرةٍ ناضجةٍ متدليّةٍ من غُصن شجرةٍ، وما دامت مرتبطةً بهذا الغُصن فسوف تبقى في مكانها، ومتى ما انقطع ارتباطها سوف تهوي ساقطةً وتفقد طراوتها. والإنسان مرتبطٌ في حياته الدُّنيا بحبل الله المتجسّد

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص9.

(2) محمّد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، ج2، ص468.

بالدُّعاء والتضرّع، وما دام ارتباطه وثيقاً فإنّ نفسَه تبقى نزيهةً وراقيةً في أعلى درجات العُبوديّة، ولكن لو قطع ارتباطه بارتكاب ذنوبٍ وقبائح فسوف يسقط في حضيض الدُّنيا الفانية ويصبح أسيراً لوساوس الشّيطان. وأشار الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام إلى ذلك في مناجاته، حين قال: «**إلهي وسيِّدي ومَولاي، إنْ قَطَعْتَ تَوفيقَكَ خَذلتَني؛ إلهي وسَيِّدي ومَولاي، إنْ رَدَدتَني إلَى نَفسِي أَهلَكتَني**»[1].

ونستوحي من القرآن الكريم أنّ التضرّع إلى الله تعالى يرفع من شأن الإنسان ويُقرّبه إليه، وإلا فلا شأن له ما دام منقطعاً عن ربّه وتاركاً دعاءه، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[2].

الدعاء عند الأنبياء والأولياء

والحقيقة أنّ سرّ توفيق الأنبياء والصّالحين ونجاحهم في إنجازاتهم العظيمة هو استعانتهم بالله تعالى وطلبهم العون منه، كما صرّح القرآن الكريم بذلك في كتابه المجيد مراراً وتكراراً، منها: دعاء آدم وحواء (الأعراف – الآية 23)، دعاء النبيّ نوح (القمر – الآية 10، الشُّعراء – الآية 118، المؤمنون – الآية 29، نوح – الآية 28)، دعاء النبيّ إبراهيم (إبراهيم –

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج91، ص122.
(2) سورة الفرقان، الآية 77.

الآيات 37 إلى 41، الشعراء – الآيات 83 إلى 89، البقرة – الآيات 127 إلى 129)، دعاء النبيّ موسى (القصص – الآية 16 و21، الأعراف – الآية 155)، دعاء النبيّ عيسى (المائدة، 114)، دعاء النبيّ يوسف (يوسف – الآية 33 و101)، دعاء أصحاب الكهف (الكهف – الآية 10)، دعاء الحواريّين (آل عمران – الآيتان 52 و53). وما أحوج العبد إلى التضرّع في جهاده الأكبر، إذ لا يمكنه كبح نفسه الأمّارة وكسر شوكة إبليس وجنده دون الاستعانة بربّه العظيم.

ونلمس مدى أهميّة الدّعاء في الأدعية المأثورة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام، حيث علّمونا أُسلوب التضرّع إلى الله تعالى ومناجاته طلباً للعون والمغفرة.

ويجب على العبد الاعتراف بعظمة ربّه والإذعان لأوامره بالعبودية والطاعة، وكذلك لا بدّ من أن يناجيه لكي يهديه إلى سواء السّبيل في كلّ صلاةٍ مرّتين: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[1].

قال أمير المؤمنين وسيّد الموحّدين عليه السلام: «**ونستَعينُهُ على هذهِ النُّفوسِ البِطاءِ عَمّا أُمِرَت بِهِ السِّراعِ إلَى ما نُهيَتْ عَنهُ**»[2]. وفي الدّعاء الذي علّمه سلام الله عليه لكُميل بن زياد والمنسوب إلى الخضر عليه السلام نستلهم أسمى مفاهيم التضرّع إلى الله

(1) سورة الفاتحة، الآيتان 6 و7.

(2) نهج البلاغة، الخطبة رقم 114.

تعالى بمنطقٍ متواضعٍ قلّ نظيره، منه: «اللّهُمَّ إنِّي أتقرَّبُ إلَيكَ بِذكرِكَ وأستشفِعُ بِكَ إلَى نفسِكَ، وأسألُكَ بجودِكَ أنْ تُدنيَنِي مِن قُربِكَ وأنْ تُوزِعَني شُكرَكَ وأنْ تُلهمَنِي ذِكرَكَ. اللّهُمَّ إنِّي أسألُكَ سُؤالَ خاضِعٍ مُتذلِّلٍ خاشِعٍ أنْ تُسامِحَنِي وتَرحَمَنِي»، ومنه كذلك: «قَوِّ عَلَى خِدمَتِكَ جَوارِحِي واشدُدْ عَلَى العَزيمةِ جَوانِحِي وهَبْ لِي الجِدَّ فِي خَشيَتِكَ والدَّوامَ فِي الاتِّصالِ بِخدمَتِكَ»[1]. وقال الرسول الأكرم ﷺ في دعاءٍ: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به رضوانك، ومن اليقين ما يهوّن علينا به مصيبات الدنيا، اللهم أمتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا واجعل ثارنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا ولا تُسلّط علينا من لا يرحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين»[2].

وقد رَوى أبو حمزة الثّماليّ عن أبي جعفرٍ الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أوحَى إلَى داودَ عليه السلام أنْ ائتِ عَبدِي دانيالَ فَقُل لَهُ: إنَّكَ عَصَيتَنِي فَغَفرتُ لَكَ[3] وعَصَيتَنِي فَغَفرتُ لَكَ وعَصَيتَنِي فَغَفرتُ لَكَ، فإنْ أنتَ عَصَيتَنِي الرّابعةَ لَمْ أغفِرْ لَكَ.

(1) انظر: مفاتيح الجنان، دعاء كميل بن زياد.

(2) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج2، ص63.

(3) لا يخفى على القارئ الكريم أنّ معصية الأنبياء ليست كمعاصي سائر البشر في القبح والتمرّد على أوامر الله تعالى، لأنّها تعني ترك الأَولَى وحسب.

فَأتاهُ داودُ عليه السلام، فقالَ: يا دانيالُ، إنَّني رسولُ اللهِ إليك وهُو يقولُ لَكَ: إنَّكَ عَصَيتَني فَغَفرتُ لَكَ وعَصَيتَني فَغَفرتُ لَكَ وعَصَيتَني فَغَفرتُ لَكَ، فإنْ أنتَ عَصَيتَني الرّابعةَ لَمْ أغفِرْ لَكَ.

فقالَ لهُ دانيالُ: قَدْ أبلَغْتَ يا نَبِيَّ اللهِ.

فَلَمّا كانَ في السَّحَرِ قامَ دانيالُ فَناجَى رَبَّهُ، فقالَ: يا رَبِّ، إنَّ داودَ نَبِيَّكَ أخبرَني عَنكَ أنَّني قَدْ عَصَيتُكَ فغَفَرتَ لي وعَصَيتُكَ فغَفَرتَ لي وعَصَيتُكَ فغَفَرتَ لي، وأخبَرني عَنكَ أنَّني إنْ عَصَيتُكَ الرّابعةَ لَمْ تَغفِرْ لي؛ فَوَعِزَّتِكَ لَئِنْ لَمْ تَعصِمني لأعصينَّكَ ثُمَّ لأعصينَّكِ ثُمَّ لأعصينَّكَ»[1]. إنّ نبيّ الله دانيال عليه السلام بالطبع لا يقصد في قوله (لأعصينّك) إصراره على ذلك، بل يؤكّد في ذلك ضعف النّفس وعدم صمودها أمام المعصية ما لم يعصمها الله تعالى، لذا يدعوه متضرّعاً أن يُسدّد خُطاه ويأخذ بيده ويحفظه من كلّ زلّةٍ.

كذلك يجدر بنا أن نحتذي بالصّالحين ونتوسّل بربّ العزّة والجلالة لأن يوفّقنا لما فيه خير الدّنيا والآخرة وأن يحفظنا من وساوس الشيطان الرّجيم وأن لا يُوكلنا إلى أنفسنا طرفة عينٍ.

نقرأ في جانبٍ من دُعاء أبي حمزة الثّمالي ما يلي: «أعوذُ بِكَ مِن نَفسٍ لا تَقنَعُ ومِن بَطنٍ لا يَشبَعُ وقَلبٍ لا يَخشَعُ

(1) محمّد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، ج2، ص436.

ودُعاءٍ لا يُسمعُ وعَملٍ لا يَنفعُ وصَلاةٍ لا تُرفعُ. وأعوذُ بِكَ يا رَبِّ علَى نَفسِي ودِينِي ومالِي وجَميعِ ما رَزَقتَنِي مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ»[1].

فالعبد المتضرّع يشعر بلذّةٍ وطراوةٍ في مناجاته لا يُدركها أحدٌ سواه، لأنّ الدّعاء يسحر قلبَه ويأسره بحيث لا يبقى فيه مجالٌ لملذّات الدّنيا الزائلة وشهوات نفسه الحيوانيّة التي لا تتغلغل إلا في النّفوس الخاوية البعيدة عن حقيقة الذِّكر: «مَن ذا الَّذي ذاقَ حَلاوَةَ ذِكرِكَ فَرامَ مِنكَ بَدَلاً»[2].

فيا تُرى هل هناك ربٌّ أفضل من هذا الّذي يتقرّب إلى عبدهِ ويدعوه إلى التقرّب منه ليُنعمه بالسعادة الأزليّة، فأوحى إلى نبيّه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[3] ويلٌ لمن يموت قلبُه ولا يُلبّي دعوةَ ربّ الأرباب بالتقرّب إليه ولا يُناجيه، فقد حرم نفسه من نعمةٍ عظيمةٍ ومتعةٍ حقيقيّةٍ لأنّه انهمك في متاع الدّنيا الزائف وعاش في وهم اللذّة العبثيّة التي ستودي به إلى عذابِ الجحيم. وعن الإمام جعفر الصّادق عليه السلام: إنّ الله تعالى أوحى إلى نبيّه داود عليه السلام: «إنَّ أدنَى ما أنا صانعٌ بِهِمْ

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج83، ص109.
(2) المصدر السابق، ج91، ص 148.
(3) سورة البقرة، الآية 186.

أنْ أنـزَعَ حَـلاوَةَ مُناجاتِـي عـن قُلوبِهِـمْ»[1].

فيا أيّها العبد المسـكين الذي خدعته الدّنيا بغرورها وغرق في وحل شهواتها، التحق بركب الصُّـلحاء والصِّديقين وتضرّع إلى بارئك وانقطع إليه متوسّـلاً به وبأفضـل خلقه محمّد وأهل بيته الكرام وناجِه: **إلهي أَذِقْني حَلاوَةَ ذِكرِكَ**.

(1) محمّد بن يعقوب الكليني، أُصول الكافي، ج1، ص46.

التفكّر

حقيقة التفكّر وأثره على السلوك

إنّ عـدم اكتراث الإنسـان بما يحيط به وغفلته عمّا سـيؤول إليه مصـيره مستقبلاً، سـببٌ لارتكابه الآثام والمعاصي. فهذه الغفلـة تحرم ابن آدم من الكمال الحقيقيّ وتجعله في مصـافّ البهائم التي لا تفقه شيئاً، بل أضلّ سبيلاً.

وإذا ما تمكّن العبد من علاج غفلته فسـوف يتسـنّى له صـدّ جموح النّفس وردعها عن ارتكاب المعاصي بسهولةٍ وسينجو من وسوسـة الشّـيطان الذي يُزيّن له قبائح الأعمـال. وبالطبع فإنّ أنجع علاجٍ لها هو الاختلاء بالنّفس والتفكّر في ذات اللّه تعالى. فالتفكّـر بعاقبة الأمور والتدبّر فـي واقع الكون والمبدأ والمعاد، ينـوّر بصـيرة الإنسـان ويفتـح له آفـاق معرفة حقائـق الوجود ويصـونه من الوقوع في فخّ الدّنيا ويُنجيه من حبائلها ولا يسمح لشـهواته بتهميش العقل أو السيطرة عليه؛ لذا فإنّ العاقل الذي يجعل التفكّر منهجاً له، لا يسـاوم علـى مبادئ دينه مهما كانت الظّروف.

فالاعتماد على العقل هو أساس كلّ خيرٍ، لأنّه معيار الفضائل والهادي إلى الله تعالى والحدّ الفاصل بين الإنسان والحيوان، لذلك أكّدت نصوصنا الدينيّة من آياتٍ وأحاديث على أهميّة التفكّر واتّباع العقل، واعتبرت ذلك من أفضل العبادات، كما أشارت إلى أنّ العبادة الحقّة هي ما كانت بتحريكٍ من العقل. فالتأمّل في الطبيعة والخلقة والتفكّر في آيات الله تعالى والاعتبار بقصص الأُمَم السالفة والأحداث التأريخيّة، كلّها أُمورٌ تُحيي العقل وتنعشه، فقد قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾[1]، وقال سبحانه في آيةٍ أُخرى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[2].

ووصف جلّ شأنه الصّالحين من عباده قائلاً: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[3].

فالوحي السماويّ المقدّس الذي ألهمه الله تعالى خاتمَ أنبيائه ورسله وهادي الخلق أجمعين، هو نورٌ يُضيء طريق أهل العقل والمعرفة. فقد أنزل الله تعالى كتابه على قلب نبيّنا

(1) سورة البقرة، الآية 219.
(2) سورة الحشر، الآية 21.
(3) سورة آل عمران، الآية 191.

الكريم ﷺ ليفسّر مضامينه لهم وليتفكّروا في ذلك، حيث قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

وهناك العديد من الآيات التي تدعو النّاس إلى التفكّر والاعتبار بآيات الله تعالى وقصص الأُمَم السالفة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[2].

وروي عن الإمام عليّ عليه السلام: «التَّفكُّرُ يَدعُو إلَى البِرِّ والعملِ بهِ»[3].

وروي عنه أيضاً: «دَوامُ الفِكرِ والحذَرُ يُؤمِنُ الزَّلَلَ ويُنجِي مِن الغِيَرِ»[4].

وروي عن الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام: «أُوصيكُمْ بِتقوَى اللهِ وإدامَةِ التَّفكُّرِ، فإنَّ التَّفكُّرَ أبو كلِّ خيرٍ وأُمّهُ»[5].

وروي عن الإمام جعفر الصّادق عليه السلام: «ليستْ العِبادةُ كَثرَةَ الصَّلاةِ والصَّومِ، إنَّما العِبادةُ التَّفكُّرُ فِي أمرِ اللهِ عزَّ وجلّ»[6].

(1) سورة النحل، الآية 44.

(2) سورة الرعد، الآية 3؛ سورة الروم، الآية 21؛ سورة الزُّمر، الآية 42؛ سورة الجاثية، الآية 13. كذلك انظر: سورة البقرة، الآية 266 سورة الأنعام، الآية 50؛ سورة الأعراف، الآيتان 184 و176؛ سورة الروم، الآية 30؛ سورة يونس، الآية 24؛ سورة النحل، الآيتان 11 و69؛ سورة الحشر، الآية 21.

(3) محمّد بن يعقوب الكليني، أُصول الكافي، ج2، ص55.

(4) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج7، ص539، نقلاً عن غُرر الحكم ودُرر الكلِم.

(5) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج7، ص540.

(6) محمّد بن يعقوب الكليني، أُصول الكافي، ج2، ص55.

وقال كذلك: «تَفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِن عِبادةِ سنَةٍ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾»[1].

فالتفكّر يعني تسخير العقل، وله أهميّةٌ بالغةٌ في ميدان الجهاد الأكبر كونه يُرسّخ إرادة الإنسان في الجانب الخلقيّ ويُقوّي أُصول التقوى في نفسه، وبالتالي يُقوّم أفعاله ويُشذّب سلوكه. فالتفكّر يُصلح فكر الإنسان ويُنزّه عمله ويضع له منهجاً قويماً يسلك من خلاله سبيل الخير والسعادة، حيث وصفه الإمام جعفر الصّادق عليه السلام وصفاً رائعاً، فقال: «التَّقوَى ماءٌ يَنفَجِرُ مِن عَينِ المعرِفَةِ»[2].

أمّا معلّم الأخلاق وأُسوة الصّالحين في عصرنا الحديث الإمام الخمينيّ رحمه الله، فيصف التفكّرَ بعباراتٍ في غاية الرّوعة بقوله: «اعلم أنّ للتّفكّرِ فضائلَ كثيرةً. فالتّفكّرُ هو مفتاحُ أبوابِ المعارفِ وخزائنُ الكمالاتِ والعلوم، وهو مقدّمةٌ لازمةٌ وحتميّةٌ للسّلوكِ الإنسانيِّ، ولهُ في القرآنِ الكريمِ والأحاديثِ الشّريفةِ تعظيمٌ بليغٌ وتمجيدٌ كاملٌ، كما أنّ تاركَهُ معيَّرٌ ومذمومٌ»[3].

«اعلم أنّ أوّلَ شرطِ مجاهدةِ النّفسِ والسّيرِ باتّجاهِ الحقِّ تعالى هو التّفكر، وقدْ وضعَهُ بعضُ علماءِ الأخلاقِ في بداياتِ الدّرجةِ الخامسةِ، وهذا التّصنيفُ صحيحٌ في محلِّهِ أيضاً.

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج68، ص327.
(2) الإمام جعفر الصّادق عليه السلام، مصباح الشّريعة، الباب رقم 64.
(3) الإمام الخميني رحمه الله، الأربعون حديثاً، الحديث الثاني عشر، ص164 و165.

«التّفكّر في هذا المقام هو أن يُفكّرَ الإنسانُ بعضَ الوقتِ في أنّ مَـولاهُ الّذي خلقَهُ في هـذهِ الدّنيا ووفّرَ لهُ كُلَّ أسـبابِ الدِّعةِ والرّاحـةِ ووهبَهُ جِسـماً سَـليماً وقِوىً سـالمةً ذات منافـعٍ تُحيِّر ألبـابَ الجميـعِ، والّذي رَعـاهُ وهيَّأ لهُ كُلَّ هذهِ السِّـعةِ وأسـبابِ النِّعمةِ والرَّحمةِ مِن جهةٍ، وأرسَلَ جميعَ هؤلاءِ الأنبياءِ وأنزلَ كُلَّ هذهِ الكُتبَ «الرِّسالاتِ»، وأرشَدَ ودَعا إلى الهدَى مِن جهةٍ أُخرَى.

«هـذا المولى ماذا يسـتحقُّ منّا؟ وما هو واجبُنـا تجاهَ مالِكِ الملـوكِ هـذا؟! هـل أنّ وجودَ جميعِ هـذهِ النِّعَمِ هـو فقط لأجلِ هذهِ الحياةِ الحيوانيّةِ وإشـباعِ الشَّـهواتِ الّتي نشـترِكُ فيها معَ الحيواناتِ أو أنّ هناكَ هدَفاً وغايةً أُخرى؟

«هـل أنّ للأنبياءِ الكِـرامِ والأولياءِ العِظـامِ والحكماءِ الكِبارِ وعلمـاءِ كُلِّ أُمَّـةٍ الّذين يَدعـونَ النّاسَ إلى حُكمِ العَقلِ والشَّـرعِ ويُحذِّرونَهُـم مِن الشَّـهَواتِ الحيوانيَّةِ، ومِن هـذهِ الدّنيا البالية، عداءاً ضـدّ النّاسِ أم أنّهم كانوا مثلَنا لا يعلمونَ طريقَ صلاحِنا نحنُ المساكينَ المنغمسينَ في الشَّهَواتِ؟!

«إنّ الإنسـانَ إذا فكَّرَ لحظةً واحدةً عرفَ أنّ الهدفَ من هذهِ النِّعَمِ هو شـيءٌ آخرَ، وأنّ الغايةَ مِن هذا الخلقِ أسـمَى وأعظمُ، وأنّ هذهِ الحياةَ الحيوانيّةَ ليست هي الغايةُ بحدِّ ذاتِها، وأنّ على الإنسـانِ العاقـلِ أن يُفكِّرَ بنفسِـهِ وأنْ يترحّمَ علَى حالهِ ونفسـهِ المسـكينةِ، ويُخاطبُها قائلاً: أيّتُها النَّفسُ الشّـقيّةُ التي قضيتِ

سِـنِيَّ عمـرِكِ الطّويلـةِ في الشّـهَواتِ ولم يكنْ نصـيبُك سـوى الحسرةِ والندامةِ، ابحثِي عَن الرّحمةِ واستحي من مالكِ الملوكِ وسيري قليلاً في طريقِ الهدفِ الأساسيِّ المؤدّي إلى حياةِ الخلدِ والسّـعادةِ السرمديَّةِ، ولا تبيعي تلكَ السّعادةَ بشهَواتِ أيامٍ قليلةٍ فانيةٍ، التي لا تتحصّلُ حتَّى معَ الصعوباتِ المضنيةِ الشّاقةِ».[1]

إذن، العبـد الـذي يقـع فـي حبائل الدّنيـا وينخـدع بزخرفها الزّائل، فيُرجّحها على السّـعادة الأبديّة، هو في الحقيقة ليس من أهل التفكّر والعقل، بل من الغافلين الذين حال جهلهم دون تمهيد طريقهـم لحياتهم الأُخرويّة. وأمّا العبد الذي يعتبر الدّنيا الفانية دار عملٍ وسـعي للحياة الأُخرويّة الباقية والسعادة الحقيقيّة، فهو مَن سـلك منهج العقـل والتفكّر ولم يُذعن لنـزوات نفسـه الأمّارة أبداً. وقد تطرّق القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في الآية الكريمة: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾[2]، والآيـة الكريمة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾[3].

وروي عن الإمـام عليّ عليه السلام محفّزاً على التفكّر: «**رَحِمَ اللهُ امـرَأً تَفكَّرَ فَاعْتَبَرَ واعْتَبَرَ فأبْصَرَ فَكأَنَّ ما هُوَ كائِنٌ مِن الدُّنيا عَـنْ قَلِيـلٍ لَـمْ يَكُنْ وكأَنَّ ما هُـوَ كائِنٌ مِن الآخـرَةِ عَمّا قَليلٍ لَمْ**

(1) الإمام الخميني رحمه الله، الأربعون حديثاً، الحديث الأوّل، ص5 و6.
(2) سورة الأنعام، الآية 32.
(3) سورة القَصص، الآية 60.

يَزَلْ وكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ وكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ وكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دانٍ»[1].

فالتّفكّـر يُرقّق القلب ويُلطّـف الرّوح ويُرسّـخ الإيمان ويُثبّت التّقـوى ويُذيق الإنسـان طعم العبادة ولذّة المناجاة والتضـرّع، كما يمنحه القدرة على الصّـمود أمام نزوات النّفس الشّيطانيّة ومُغريـات الدّنيـا الخدّاعـة، وينتشـل العاقـل من وحـل النّفس البهيميّـة ويقوده إلى عالم العقل والإنسـانيّة، وهو الذي ينشـر الخير ويقطع دابر الشرّ؛ لأنّه عبادةٌ لا ترقى لها أيّة عبادةٍ أُخرى.

وقد وصـفه الإمام جعفر الصّـادق عليه السلام في قولـه: «والفِكرَةُ مِـرآةُ الحسَناتِ وكَفّارَةُ السَّيئاتِ وضِياءُ القُلوبِ وفُسحَةُ الخَلقِ وإصابـةٌ في صلاحِ المعادِ واطِّلاعٌ علَـى العواقبِ واستزادةٌ في العِلمِ، وهِي خِصلةٌ لا يُعبدُ اللهُ بمثلِها»[2].

موارد التفكّر

وهنـاك موارد عديـدة تجدر بالتفكّـر ولها تأثيـرٌ كبيرٌ على الإنسـان من الناحية التربويّة وتكون سنداً له في ميدان الجهاد الأكبر ومقارعة أعداء النّفس، نذكر منها ما يلي:

1- التفكّـر فـي نظام الخِلقـة والظّواهر الطبيعيّـة التي هي آيـاتٌ لعظمة الله تعالى، حيث أشـار القرآن الكريم إليها فـي آياتٍ عديدةٍ، منهـا: الآيتان 190 و191 من سـورة آل

(1) نهج البلاغة، الخطبة رقم 103.

(2) محمّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار، ج68، ص326.

عمران، الآيتان 3 و4 من سورة الرّعد، الآيتان 11 و12 من سورة النّحل.

2- التفكّر بحقيقة الإنسان وخصاله العجيبة التي تُميّزه عن غيره من المخلوقات. قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾[1]، وقال سبحانه أيضاً: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾[2].

3- التفكّر في معجزة رسول الله ﷺ المتجسّدة في كتاب الله العظيم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾[3].

4- التفكّر في حقائق الدّنيا وأحداث الآخرة: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾[4].

5- التفكّر في الأحداث التأريخيّة والاعتبار بقصص الأُمَم السّالفة وما آل إليه مصيرها: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾[5].

(1) سورة الذّاريات، الآية 21.
(2) سورة الزُّمَر، الآية 42.
(3) سورة النّساء، الآية 82.
(4) سورة البقرة، الآيتان 219 و220.
(5) سورة الأعراف، الآية 176.

التفكّر في أحوال الأُمَم السّالِفة

خير مُعلّم يحيي النفوس

إنّ الأُسلوب القصصيّ يُعدّ أفضل الأساليب التعليميّة، إذ يتمّ من خلاله تصوير الأحداث ذات الطابع الإيجابيّ أو السلبيّ وبيان نتائجها، ولا سيّما قصص الأُمَم السّالفة وبعض الشخصيّات المشهودة في التأريخ. ونصوصنا الإسلاميّة بدَورها حافلةٌ بهذه القصص، حيث تزخر بالعلوم العقائديّة والمعارف الأخلاقيّة والمناهج التربويّة في مختلف المجالات الاجتماعيّة والسياسيّة في إطار أمثالٍ وحكاياتٍ كلّها عِبرٌ ومواعظ.

فكتاب الله المجيد حافلٌ بقصص الأنبياء والصّالحين وما كابدوه من معاناة وآلام جرّاء ظلم الحكّام وجَور الطّغاة، وكما يقول بعض المحقّقين فإنّها زُهاء 268 قصّةً، وبالتأكيد لها دَورٌ كبيرٌ في هداية المسلمين وتهذيب سلوكهم لما فيها من مواعظ عظيمة. فالقرآن الكريم ليس كتاب فلَكٍ ولا طبٍّ ولا رياضيّاتٍ ولا تأريخٍ، بل هو كتاب هدايةٍ فيه أُسس تحصيل مختلف العلوم واستثمارها. فهو كتابٌ في قمّة الفصاحة وبلاغته لا تُضاهيها

بلاغةٌ، لذا فإنّ عناصر القصّة فيه متكاملةٌ ولا يشوبها نقصٌ، يستأنس بها المخاطب في شتّى العصور وتُناسب فئات المجتمع كافّةً لأنّها محبوكةٌ بأُسلوبٍ فنّيٍّ في غاية الرّوعة. فنلحظ فيها الواقع مصوّراً في إطار فنّيٍّ جميلٍ، وهو أحد أوجه إعجازه، حيث امتزج فيه الفنّ بعاطفة الإنسان وطبيعة خلقته بحبكةٍ متقنةٍ دون أن يتجاوز حدود الواقع، فلا تشوبه أيّة خرافاتٍ أو أساطير. وقد ذكر سبحانه وتعالى سبب سرد القصص في القرآن الكريم حين قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[1].

وأمر الله تعالى نبيّه الكريم محمّد ﷺ في سورة الأعراف أن يذكر لقومه قصص الأُمم الأولى ليتفكّروا فيها علّها تكون عبرةً لهم ورادعاً عن الوقوع في الانحراف الذي ابتُليت به تلك الأُمم وهلكت إثره، كقصّة بلعم بن باعوراء التي هي إنذارٌ لكلّ عبدٍ صالحٍ. قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾[2].

وهناك قصصٌ أُخرى تُنعم النّفس بالرّجاء والأمل وتُحفّز العبد على المضيّ قُدماً في طريق الكمال، وهي قصص الأنبياء والصالحين: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[3].

(1) سورة يوسف، الآية 111.
(2) سورة الأعراف، الآية 176.
(3) سورة هود، الآية 120.

فلو اطّلع الإنسان على قصص الأُمَم السالفة وما آل إليه مصيرها، سيحتكم إلى عقله وتُصبح بصيرته نافذةً وتتهيّج عواطفه فيخوض ميدان الجهاد الأكبر بثباتٍ وعزيمةٍ راسخةٍ، وبالتالي سيقطع دابر الشّيطان ولا يسمح للملذّات الزّائلة بالتغلغل في نفسه، مثل حبّ الدّنيا واتّباع الشّهوات والسّعي وراء المناصب؛ وذلك لأنّ عدم الاعتبار بما مضى هو أحد أسباب انحراف الإنسان وسقوطه في مكائد الشّيطان. وقد أكّد تعالى في كتابه المجيد على ضرورة التفكّر بما حلّ بالسّلف وانتقد إهمال ذلك، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾[1].

وبالطبع لو نُصح شخصٌ بترك الدّنيا وملذّاتها العابرة وأُوصي بالتوجّه إلى الآخرة ونعيمها الدائم، فإنّ وقع هذا القول في نفسه لا يكون مؤثّراً كما ينبغي؛ ولكن عندما تُذكر له قصص الآخرين وما تمخّض عن أعمالهم، فسوف يُدرك أنّ عاقبته ستؤول إلى ما آلت إليه عواقبهم إذا ما سلك نهجهم وسيبذل ما بوسعه كي لا يصبح عبرةً للآخرين، فيُصلح أمر آخرته ويُعرض عن مغريات الدّنيا وعواقبها السيّئة. قال الإمام

(1) سورة غافر، الآية 21.

علـيّ عليه السلام: «اتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ»[1].

وفي رسالته إلى ابنه الإمام الحسن عليه السلام والتي تزخر بالمواعظ والمفاهيم السامية في إطار وصايا وإرشاداتٍ لا تصدر إلا عمّن كان راسخاً في العلم، قال: «أَعْرِضْ عَلَيهِ أَخْبارَ الماضِينَ وذَكِّرْهُ بِما أَصابَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ مِن الأَوَّلِينَ، وسِرْ فِي دِيارِهِمْ وآثارِهِمْ فَانظُرْ فِيما فَعَلُوا وعَمّا انْتَقَلُوا وأَينَ حَلُّوا ونَزَلُوا، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَد انتَقَلُوا عَن الأَحِبَّةِ وحَلُّوا دارَ الغُرْبَةِ، وكأَنَّكَ عَن قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كأَحَدِهِمْ؛ فَأَصْلِحْ مَثْواكَ ولا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنياكَ ودَعِ القَولَ فِيما لا تَعْرِفُ والخِطابَ فِيما لَمْ تُكَلَّفْ، وأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إذا خِفْتَ ضَلالَتَهُ». ويُضيف سلام الله عليه في هذه الرسالة نفسها قائلاً: «أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمالِهِمْ وفَكَّرْتُ فِي أَخْبارِهِمْ وسِرْتُ فِي آثارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كأَحَدِهِمْ، بَلْ كأَنِّي بِما انتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذلِكَ مِنْ كَدَرِهِ ونَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ وتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ وصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَه»[2].

(1) نهج البلاغة، الخطبة رقم 32.

(2) المصدر السابق، كتاب رقم 31.

كما قال في خطبةٍ قصيرةٍ قبل شهادته: «وإنَّما كُنْتُ جاراً جاوَرَكُمْ بَدَني أيّاماً، وسَتُعْقَبُونَ مِنّي جُثَّةً خَلاءاً ساكِنَةً بَعْدَ حَراكٍ وصامِتَةً بَعْدَ نُطُوقٍ لِيَعِظَكُمْ هُدُوِّي، وخُفُوتُ إطْراقِي وسُكُونُ أطْرافِي فَإنَّهُ أوْعَظُ للمُعْتَبِرِينَ مِن المنطِقِ البَلِيغِ والقَوْلِ المسْمُوعِ»[1].

وأوصى أصحابه في خطبته الرائعة المعروفة بـ(القاصعة)، قائلاً: «فَاعتَبِرُوا بِما أصابَ الأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأسِ اللهِ وصَولاتِهِ ووَقائِعِهِ ومَثُلاتِهِ، واتَّعِظُوا بِمَثاوِي خُدُودِهِمْ ومَصارِعِ جُنُوبِهِمْ»[2].

فالاعتبار بما حلّ بالأُمَم السالفة خير معلّمٍ يُحيي القلب ويُنير البصيرة، لأنّه يزرع الإيمان وروح التّقوى في نفس العبد ويشدّ أزره في مواجهة مصاعب الحياة أثناء مسيرته الشّاقة نحو عالم الأزل والخلود. وقد أشار الإمام جعفر الصادق عليه السلام إلى هذه الحقيقة بكلامٍ في غاية الروعة حين قال: «اعتَبِرُوا بِما مَضَى مِن الدُّنيا، هَل بَقِيَ علَى أحدٍ؟! أو هَل فيها باقٍ مِن الشَّريفِ والوَضيعِ والغَنِيِّ والفَقيرِ والوَلِيِّ والعَدُوِّ؟! فَكذلِكَ ما لَم يَأتِ مِنها بِما مَضَى أشبَهُ مِن الماءِ بالماءِ»[3].

(1) المصدر السابق، الخطبة رقم 149.

(2) المصدر السابق، الخطبة رقم 192.

(3) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج68، ص325.

إذن، أهـمّ المواعـظ القرآنيّـة تتجسّـد فـي قصـص الأُمَم السّالفة، فلو تأمّل العبد فيها وتدبّر في عواقبها سوف يعتبر منها ويجعلها رادعاً لنفسـه كي لا يقع في المحذور، وبالتالي سيتمكّن مـن تهذيـب نفسـه وبنـاء مجتمعه. قـال تعالـى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

أهداف القصّة القرآنيّة

من البديهيّ أنّ القصص والحكايات القرآنيّة لا يُقصد بها سرد وقائع وأحداث تأريخيّة وحسب، بل هناك هدفٌ سامٍ تتمحور حوله، ألا وهو هداية النّاس إلى سبيل الرّشاد؛ فالقرآن الكريم ليس كسائر كتب التأريخ التي هدفها بيان تفريعاتٍ وتفاصيل تأريخيّةٍ دون التوجّه إلى جانبها المعنوي. فكلّ قصّةٍ قرآنيّةٍ لها هدفٌ خاصٌّ يتمحور مفهومها حوله، وكلّما تدبّر الإنسان في هذه المفاهيم البنّاءة وتمعّن أكثر فإنّه سيستضيء بنور مواعظها. ونلخّص بعض تلك المفاهيم فيما يلي:

1- **الفكر والعقيدة.**

نستلهم المفاهيم العقائديّة من أغلب قصص الأنبياء والرُّسُل.

(1) سورة النّور، الآية 34.

2- **الأخلاق.**

نستوحي من المفاهيم الأخلاقيّة في القرآن الكريم القيَمَ الساميةَ وما يُنافيها من رذائل، وبالتالي ما يترتّب على كلٍّ منها.

3- **المجتمع والسياسة.**

تصوّر لنا بعض القصص القرآنيّة حكايات الأُمَم السالفة وما آلت إليه أوضاع كلّ حاكم جائرٍ، وعاقبة الاستسلام للتيّارات المنحرفة والابتعاد عن القواعد الاجتماعيّة والحكوميّة التي أرساها أنبياء الله تعالى، فنستلهم منها مفاهيم اجتماعيّةً وسياسيّةً.

4- **سنّة الله تعالى في الكون.**

نستشفّ من هذا المفهوم واقع الحقّ والباطل وكيف أنّ الحقّ سينتصر والباطل سيزهق.

5- **التبشير والإنذار.**

6- **تجييش العواطف والأحاسيس النزيهة في نفس ابن آدم.**

7- **المعجزات السماويّة وحقّانيّة الأنبياء والقدرة الإلهيّة.**

8- **الرّجاء وعدم القنوط من رحمة الله تعالى.**

9- **تحفيز العبد على مقاومة التيّارات المنحرفة وعدم الانصياع لوساوس الشّيطان.**

ويتجلّى هذا المفهوم على المستويَين الباطنيّ والخارجيّ.

10- طمأنينة العبد والحدّ من الضغوط النفسيّة التي قد تعتريه.

وعلى سبيل المثال، نذكر مفهوماً قرآنيّاً مُستوحى من قصّة خليل الله إبراهيم عليه السلام بشرح وتفسير العلّامة محمّد حسين الطباطبائيّ رحمه الله: «إذا رجعنا إلى قصّةِ إبراهيم عليه السلام وسَيرهِ بولدهِ وحُرمتهِ إلى أرضِ مكّةَ وإسكانهما هناك، وما جرَى عليهما من الأمرِ، حتَّى آلَ الأمرُ إلى ذبحِ إسماعيلَ وفدائهِ من جانبِ اللهِ وبنائهما البيتَ؛ وجدنا القصَّةَ دورةً كاملةً مِن السَّيرِ العُبودِي الذي يسيرُ بهِ العبدُ من مَوطنِ نفسهِ إلى قربِ ربِّهِ، ومن أرضِ البُعدِ إلى حظيرةِ القُربِ، بالإعراضِ عن زَخارفِ الدُّنيا وملاذّها وأمانيها من جاهٍ ومالٍ ونساءٍ وأولادٍ، والانقلاعِ والتخلُّصِ عن وسائسِ الشّياطينِ وتكديرهم صَفوَ الإخلاصِ والإقبالِ والتوجّهِ إلى مقامِ الربِّ ودارِ الكبرياءِ.

«فها هِي وقائع متفرقةٌ مترتّبةٌ تسلسلتْ وتألّفتْ قصّةً تأريخيّةً تَحكي عن سَيرٍ عُبوديٍّ من العبدِ إلى اللهِ سبحانهُ وتشملُ من أدب السّيرِ والطَّلبِ والحضورِ ورسومِ الحبِّ والوَلَهِ والإخلاصِ علَى ما كلّما زِدتَ في تدبّرهِ إمعاناً زادكَ استنارةً ولمعاناً»[1].

(1) العلاّمة محمّد حسين الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج1، ص298.

حاجة الإنسان إلى المرشد

ضرورة مداواة الروح

كما ذكرنا آنفاً فإنّ الإنسان كائنٌ مركّبٌ من جسدٍ وروحٍ، وسعادته تتحقّق إذا ما تمكّن من توفير شروط السلامة لهما. فالجسد يُبتلى بأمراض عديدة، لكن لا يتسنّى لجميع النّاس تشخيصها، وإن شخّصوها فإنّهم قد يعجزون عن التصدّي لها؛ لذا فإنّ العقل يقضي بوجوب مراجعة طبيبٍ متخصّص لعلاج أيّ مرضٍ كان، ولا بدّ للإنسان حينها من اتّباع الوصفة التي حدّدها له هذا الطبيب لينعم بالصحّة والعافية.

ويا تُرى ألا يجدر بالإنسان أيضاً أن يُداوي سقم روحه كما يُعالج داء بدنه؟! فكما أنّه للخلاص من ألم المرض يُراجع طبيباً متخصّصاً بعلم الأبدان، ألا يجب عليه مراجعة حكيمٍ متخصّصٍ بعلم الأرواح للنجاة من ألم الروح؟! فهل يُعقل أنّ البدن الذي هو فرعٌ من كيان الإنسان، يستحقّ كلّ هذا العناء للحفاظ على سلامته وصيانته من الشّوائب والأمراض، ولكنّ الرّوح التي هي أصل كيان الإنسان وحقيقة ذاته لا تستحقّ أن

يبذل الإنسان جهداً لصيانتها وتطهيرها من أدران الذّنوب والمعاصي على يد حكيمٍ روحانيٍّ؟! فهل يتمكّن جميع النّاس من تشخيص المخاطر المحدقة بأرواحهم؟! وهل لهم القدرة على تحصين أنفسهم ضدّ هذه المخاطر دون أن يمسّهم أذىً؟! وقد أشار الإمام عليّ عليه السلام إلى هذا الأمر حينما قال: «**عَجِبتُ لأقوامٍ يَحتَمُونَ الطّعامَ مَخافةَ الأذَى كَيفَ لا يَحتَمُونَ الذُّنوبَ مَخافةَ النّارِ**»[1].

نعم، لا بدّ للعبد من الرجوع إلى الحكماء وعلماء الأخلاق واتّباع أوامرهم لينجو من المهالك والمخاطر المحدقة به في مسيرته المضنية نحو دار مقرّه التي يطمح فيها إلى نيل السعادة الأزليّة، لأنّهم سيُرشدونه إلى سبيل الصلاح ويهبونه العقار الناجع لما يعترض طريقه من أمراض روحيّة، فيجتاز المصاعب ويُفلح إذا ما سار على نهجهم. وسيرة الصّالحين والمفلحين خير برهانٍ على ذلك، إذ إنّهم كانوا يسترشدون مَن هو أعلى منهم مرتبةً وأكثر تقوىً في جهادهم الأكبر ولم يُذعنوا لوساوس النّفس الأمّارة التي توقعهم في المهالك، لذلك عالجوا كلّ داءٍ اعترضهم وبالتالي تخلّصوا من شوائبه. وقد تطرّق سيّد البلغاء والموحّدين عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى بيان هذه الحقيقة بعباراته البليغة التي هي دون كلام الخالق وفوق كلام

(1) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج3، ص448.

المخلوق، حيث قال: «أيُّهَا النّاسُ اسْتَصبحُوا مِن شُعْلَةِ مِصباحٍ واعِظٍ مُتَّعِظٍ وامتاحُوا مِن صَفْوِ عَينٍ قَد رُوِّقَت مِن الكَدَرِ»[1].

وانتقد الإمام الخمينيّ رَحِمَهُ اللهُ بعض الطلّاب الذين يقصدون أساتذةً متخصّصين في كسب ما يشاؤون من علوم ويعملون بأقوالهم بدقّةٍ ولا يتخلّفون عنها، إلا أنّهم لا يُذعنون بحاجتهم إلى أُستاذٍ يُرشدهم إلى مكارم الأخلاق ويُعينهم على تهذيب أنفسهم، فقال: «فكَما يحتاجُ علمُ الفقهِ والأصولِ إلى أستاذٍ ودرسٍ وبحثٍ، وكلّ علمٍ وصناعةٍ في الدنيا لا بدّ لها من أستاذٍ ومدرّسٍ. والشخصُ المغرورُ والعنيدُ الّذي لا يتّخذُ لنفسهِ مُرشداً وموجّهاً لا يصبحُ فقيهاً وعالماً؛ فكذلك العلوم المعنويّة والأخلاقيّة التي هي هدف بعثة الأنبياءِ ومن ألطفِ العلوم وأدقّها، بحاجةٍ إلى تعليم وتعلّم. إنّ بناءَ الإنسانِ لا يتحققُ بدونِ معلّمٍ. لقد سمعتُ مراراً أنَّ الشيخَ الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ، وهو أستاذ الفقهِ والأصولِ، كانَ يحضرُ درسَ الأخلاقِ والمعنوياتِ لدَى السيّد جليليّ. لقد بُعث أنبياءُ اللّه لبناءِ الإنسانِ وتربيتهِ»[2].

الأنبياء وورثتهم أطباء الروح

ومن أبرز خصال أنبياء اللّه تعالى ورسُله ولاسيّما نبيّنا الكريم محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أنّهم يُشخّصون الأمراض الخُلُقيّة

(1) نهج البلاغة، الخطبة رقم 105.

(2) الإمام الخمينيّ رَحِمَهُ اللهُ، الجهاد الأكبر أو جهاد النفس.

فيحترزون منها ويُحذّرون الناس من عواقبها الوخيمة، ويصفون العلاج لمن يُبتلى بها؛ وذلك حفاظاً على طهارة النّفوس وصيانةً لها من أدران الذّنوب. وقد وصف الإمام عليّ عليه السلام رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه طبيبٌ متجوّلٌ يجوب الدّيار فينبّه عباد الله من كدورة المرض ويصف لهم العلاج الناجع، فقال: «طَبِيبٌ دَوّارٌ بِطِبِّهِ، قَد أحْكَمَ مَراهِمَهُ وأحْمَى مَواسِمَهُ، يَضَعُ مِن ذلِكَ حَيْثُ الحاجَةُ إلَيْهِ مِن قُلُوبٍ عُمْيٍ وآذانٍ صُمٍّ وألسِنَةٍ بُكْمٍ؛ مُتَتَبِّعٌ بِدَوائِهِ مَواضِعَ الغَفْلَةِ ومَواطِنَ الْحَيْرَةِ»[1].

وبالطبع نحن لسنا كالأنبياء والأئمّة المعصومين، حيث لا يمكننا الحصول على علاجٍ لأسقام نفوسنا دون الاستعانة بحكيمٍ خبيرٍ، ولا يتسنّى لنا ذلك إلا إذا اتّبعنا وصايا وإرشادات علماء الأخلاق والصّالحين الذين انتهلوا من معين علم أهل بيت النبوّة الذي لا ينضب وهذّبوا أنفسهم. فلو عملنا بوصاياهم سنتمكّن من علاج داء نفوسنا وسننجو من زيف ملذّات الدّنيا الزائلة، فتسمو أرواحنا في أُفق العبادة الرّحب، لأنّ هؤلاء الأفذاذ هم خير خلفٍ لخير سلفٍ كما وصفهم سيّد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «العُلماءُ مصابيحُ الأرضِ وخُلفاءُ الأنبياءِ ووَرَثتي ووَرثةُ الأنبياءِ»[2]. فنحن بحاجةٍ إليهم في عصر الغَيبة، حيث إننا لا نتمكّن من مجالسة وارث السّلف وإمام العصر عجل الله فرجه الشريف، ولأنّهم

(1) نهج البلاغة، الخطبة رقم 108.

(2) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج6، ص457.

حكماء تتلمذوا في مدرسة آبائه المفعمة بنور الوحي المقدّس التي أحبطت كلّ مساعي إبليس وجنوده وكسرت شوكتهم. وهم نوّاب الأئمّة المعصومين عليهم السلام الذين جعلوا على عاتقهم مهمّة الدّفاع عن دين الله تعالى وهداية خلقه إلى سواء السّبيل، وتعهّدوا بإنقاذ المستضعفين وانتشالهم من غياهب الضّلال، وسخّروا حياتهم للتصدّي لإبليس وجنوده. وقد مدحهم الإمام عليّ الهادي عليه السلام قائلاً: «**لَولا مَن يَبقَى بعدَ غيبةِ قائمنا عليه السلام مِن العُلماءِ الدّاعينَ إليهِ والدّالّينَ عَليهِ والذّابّينَ عَن دينهِ بحُجَجِ اللهِ والمنقذينَ لضُعفاءِ عبادِ اللهِ مِن شِباكِ إبليسَ ومَرَدَتِهِ ومِن فِخاخِ النَّواصبِ، لمَا بَقِيَ أحدٌ إلّا ارتدَّ عَن دينِ اللهِ؛ ولكنَّهُم الّذينَ يُمسِكُونَ أزِمَّةَ قُلوبِ ضُعفاءِ الشِّيعةِ كَما يُمسِكُ صاحِبُ السَّفينَةِ سُكّانَها. أُولئِكَ هُم الأفضَلونَ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ**»[1].

اختيار المرشد الصالح

وقد ذكر العالم الجليل الفيض الكاشانيّ أوّل خطوةٍ في تشخيص عيوب النّفس وعلاج الأمراض الروحيّة في كتابه القيّم (المحجّة البيضاء)، فقال: «أوّل خطوةٍ هو أنّكَ تُصغي إلى صاحب البصيرة والعارف بأمراض النّفوس وتتّخذه مرشداً لك في طريق تهذيب النّفس ومحاربتها، وبالطبع فإنّ هكذا

(1) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج68، ص6 ح12.

أشخاصاً قلّما نجدهم اليومَ»[1].

تجدر الإشارة إلى أمر، وهو أنّ للمعلّم تأثيراً كبيراً على تلامذته لأنّهم يتأثّرون بأقواله وأفعاله، لذلك أوصانا أئمّتنا عليهم السلام بعدم الإذعان لأيٍّ كان، حتّى في العلوم الماديّة، لأنّنا إلى جانب كسب تلك العلوم منه، سوف نكتسب خصاله التي تتغلغل في أنفسنا دون أن نشعر؛ كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَن أصغَى إلَى ناطقٍ فقد عبدَهُ، فإنْ كانَ النّاطِقُ عَن اللهِ فقد عبدَ اللهَ، وإنْ كانَ النّاطِقُ عَن إبليسَ فقد عبدَ إبليسَ»[2]. وعن الإمام عليّ عليه السلام: «عجبتُ لمن يتَفكَّرُ فِي مَأكُولِهِ كَيفَ لا يتَفكَّرُ فِي مَعقُولِهِ، فيُجَنِّبُ بطنَهُ ما يُؤذِيهِ ويُودِعُ صدرَهُ ما يُردِيهِ؟!»[3].

وأمّا الذين يعتبرون العلم وسيلةً لكسب المال وجني الثروة، فليسوا بلائقين لأن يكونوا حُكماءَ يتّعظ النّاس بوصاياهم، لأنّهم مبتلَون بأسوأ داءٍ؛ حيث وصفهم نبيّ الله عيسى بن مريم عليه السلام قائلاً: «الدِّينارُ داءُ الدِّينِ والعالِمُ طبيبُ الدّينِ، فإذا رأيتُم الطبيبَ يَجُرُّ الداءَ إلى نفسِهِ فاتَّهِمُوهُ واعلَمُوا أنَّهُ غيرُ ناصِحٍ لغيرِهِ»[4]. فهؤلاء ليسوا بعاجزين عن الأخذ بيد العبد

(1) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء، ج5، ص113.
(2) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج69، ص264.
(3) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج6، ص485، نقلاً عن بحار الأنوار، ج1، ص218.
(4) محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج2، ص107.

إلى صراط النّجاة وحسب، بل هم كالشّيطان الذي يقطع سبيل العباد ويسوقهم نحو الهاوية وبئس المصير. وروي عن الإمام جعفر الصّادق عليه السلام: «**إنّ الله تعالى أوحى إلى نبيّه داود عليه السلام: لا تَجعَلْ بَيني وبَينَكَ عالِماً مَفتُوناً بالدُّنيا فيَصُدُّكَ عَن طَريقِ مَحبَّتي، فإنَّ أُولئكَ قُطّاعُ طريقِ عِبادِيَ المريدينَ، إنّ أدنى ما أنا صانِعٌ بِهِم أنْ أنزعَ حَلاوةَ مُناجاتِي مِن قُلوبِهِمْ**»[1].

إذن، لا يتسنّى لابن آدم كبح شهواته والظّفرُ على أهواء نفسه في جهاده الأكبر دون أن يتّخذ مُرشداً يُحذّره من مكائد الشّيطان ويهديه إلى سواء السّبيل. لذلك يجب على كلّ مَن رام بلوغ السعادة والتقرّب إلى ربّ العالمين أن يجعل لنفسه دليلاً يتّبعه وحكيماً يُداوي سقمه. كما عليه أن لا ينبهر بكلّ مَن يدّعي النُّصح والهدى ويجعله أُسوةً له، بل لا بدّ من أن يتّبع من كان أهلاً للوعظ والإرشاد، وهو الذي انتهل من فيض علوم ومعارف أهل بيت الرّسالة عليهم السلام وسار على نهجهم وعمل بوصاياهم وتخلّق بأخلاقهم السمحاء ولم ينخدع بوساوس الشّيطان. فقد وصف الإمام عليّ عليه السلام مَن يقع في فخّ إبليس بقوله: «**كَيفَ يُصلِحُ غيرَهُ مَن لا يُصلِحُ نَفسَهُ**»[2]. وبالطبع فإنّ العثور على هكذا حكيمٍ نزيهٍ ليس بالأمر اليسير، والأصعب منه هو الصّبر

(1) المصدر السابق.

(2) محمّدي الرّيشهري، ميزان الحكمة، ج10، ص146.

على وصاياه إن تمّ العثور عليه.

فيا أيّها الشابّ المجاهد في ميدان الجهاد الأكبر والباحث عن السعادة الأزليّة، كُن كموسى عليه السلام ورافق الخضر عليه السلام ليأخذك من عالم المادّة الزّائل إلى عالم الروح الخالد، وتحمّل معه مشاقّ السفر دون أن تفقد صبرك وتعترض عليه كي لا يناديك: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾[1] ، وحتّى لا تجبره على أن يهجرك ويقول: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[2].

(1) سورة الكهف، الآية 67.

(2) سورة الكهف، الآية 78.

خاتمة

عزيـزي القـارئ، مـا ذكرناه في هـذا الكتيب من مواضـيع موجزةٍ، هو خلاصـةٌ لمنهجٍ شـاملٍ وضـعه لنا ديننا الإسلاميّ الحنيف يصوننا من الانحراف ويقينا من الوقوع في فخّ الرّذيلة، وبه ينتصر جند الحقّ على شرذمة الباطل.

فهو منهجٌ يحفظ العبد من الزّلل ويصونه من الخطأ ويُطهّر ذاتـه من لوث الذّنوب، كما أنّه حصـنٌ حصـينٌ مـن كيد عدوّه اللّدود إبليس، حيث تطرّقنا إلى بيانه هنا لأنّه لم يبوّب في كتب الأخـلاق بهـذا الترتيب. وإلى جانب أُسـس تهذيـب النّفس في معترك الجهاد الأكبر، هناك مبادئ ساميةٌ تزخر بها نصوصنا الدينيّـة. فهذه المبـادئ دواءٌ ناجعٌ لما يُلطّخ الرّوح من صـفاتٍ قبيحةٍ وسـدٌّ منيعٌ يردع تيّارات الضّـلال المتلاطمـة التي تُهدّد كيان كلّ إنسـانٍ، مثل العجُب والبُخل والتكبّر والحسَـد والغضَب وحـبّ المـال والسـعي وراء المناصـب والحرص وحـبّ الدّنيا والأنانيّة.

نرجو من الله العزيز القدير أن يتقبّل هذا الجهد المتواضع ليكون منهلاً يروي ظمأ المتعطّشين للحقيقة والسعادة الأزليّة ولاسيّما شبابنا المؤمن، وأسأله أن يوفّقنا لبيان مبادئ وأُصول ديننا السامية في رحاب جواهر الكلام من آياتٍ قرآنيّةٍ وروايات من عبق سيرة الأولياء والصّالحين الذين أخذوا على كاهلهم تمهيد طريق بني آدم نحو السعادة الأبديّة وقطع دابر إبليس وجنده.

آمّين ربّ العالمين.

مصادر الكتاب ومراجعه

1- حسن زادة الآمليّ، صد كلمة (باللّغة الفارسيّة)، قم، مطبعة قيام، 1368هـ ش.

2- السيّد روح اللّه الخمينيّ رحمه الله، الجهاد الأكبر أو جهاد النّفس، طهران، مؤسّسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخمينيّ رحمه الله، 1372هـ ش.

3- السيّد روح اللّه الخمينيّ رحمه الله، الأربعون حديثاً، طهران، مركز رجاء الثّقافيّ، 1368هـ ش.

4- السيّد روح اللّه الخمينيّ رحمه الله، صحيفة النور (باللّغة الفارسيّة)، طهران، مركز الوثائق الثقافيّة للثّورة الإسلاميّة، وزارة الإرشاد، بدون تأريخ.

5- السيّد عبد الحسين دستغيب الشّيرازيّ، قلب سليم (باللّغة الفارسيّة)، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، 1351هـ ش.

6- الشّريف الرّضيّ، نهج البلاغة، ترجمة محمّد الدّشتي، قم، منشورات مشرقين، بدون تأريخ.

7- الشّيخ عبّاس القميّ، مفاتيح الجنان، قم، مطبعة نبوغ، بدون تأريخ.

8- مرتضى المطهّريّ، مجموعة آثار (باللّغة الفارسيّة)، ج22، قم، منشورات صدرا، 1381هـ ش.

9- محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القميّ (الشّيخ الصّدوق)، الأمالي، بيروت، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، 1410هـ.

10- الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام، مصباح الشّريعة، بيروت، مؤسّسة الأعلمي، 1400هـ.

11- عبد الواحد بن محمّد التميميّ الآمديّ، غُرَر الحِكَم ودُرَر الكَلِم، قم، مكتب الإعلام الإسلاميّ، بدون تأريخ.

12- السيّد عبد الله الجزائريّ، التُّحفة السَّنيَّة، بدون تأريخ.

13- محمّد وعليّ ومحمّد رضا الحكيميّ، الحياة، طهران، مركز طبع ونشر جامعة المدرّسين، 1360هـ ش.

14- أحمد بن فهد الحليّ، عدّة الدّاعي في نجاح السّاعي، قم، مكتبة وجداني، بدون تأريخ.

15- الحسن بن عليّ بن الحسين بن شعبة الحرّانيّ، تُحَف العقول، قم، مؤسّسة نشر إسلامي، بدون تأريخ.

16- محمّد الشّعيريّ، جامع الأخبار، بيروت، مؤسّسة

الأعلميّ للمطبوعات، 1406هـ.

17- السـيّد محمّد حسـين الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، قم، جامعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، بدون تأريخ.

18- محمّـد بن الحسـن العاملـيّ (الحرّ العامليّ)، وسـائل الشّيعة، قم، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التُّراث.

19- الملا محسن محمّد بن المرتضى (الفيض الكاشانيّ)، المحجّة البيضـاء فـي تهذيب الأحياء، بيروت، مؤسّسـة الأعلميّ للمطبوعات، 1403هـ.

20- محمّـد بـن يعقـوب الكليني، أُصـول الكافـي، طهران، المكتبة الإسلاميّة.

21- محمّـد المحمّـديّ الرّيشـهريّ، ميـزان الحكمـة، قم، المكتب الإعلاميّ في الحوزة العلميّة، 1362هـ ش.

22- محمّـد باقر المجلسـيّ، بحار الأنوار، بيروت، مؤسّسـة الأعلميّ، بدون تأريخ.

23- الميرزا حسـين النّوريّ الطبرسـيّ، مستدرك الوسائل، قم، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التُّراث، 1407هـ.

24- ناصر مكارم الشّيرازيّ، التفسير الأمثل، قم.

الفهرس

مقدّمة ٥

حقيقة الإنسان في القرآن الكريم ١١

الإنسانية صنفان ١١

سرّ اختلاف بني آدم في الإنسانية ١٤

طبيعة الخلقة الإنسانية ١٨

كمال النفس الإنسانية ٢١

الموازنة بين كمالات الروح وحاجات البدن ٢٥

معرفة النفس ٢٩

سبيل الهدى ٢٩

حقيقة الإنسان ٣٤

حريّة الاختيار ٣٥

الالتزام بالمبادئ وقبول المسؤوليّة ٣٦

خلود الإنسان ٣٧

كمال الإنسان ٣٨

الإنسان هو محور الخلقة ٤٠

اجتناب المعاصي والذنوب ٤٣
حقيقة الذنب..... ٤٣
معرفة المذنب مقدمة لعلاجه ٤٤
مخاطر الاستخفاف بالذنب..... ٤٦
ذكر الله تعالى ٤٩
معرفة الله أساس الهدى..... ٤٩
ذكر الله هو الهدف ٥٢
حقيقة الذِّكرِ ٥٥
ثمار ذكر الله تعالى ٥٩
العقبات التي تعترض طريق الذِّكر ٦٦
ذكر الموت..... ٧١
فضيلة ذكر الموت..... ٧١
الدُّنيا قصيرةٌ وفانية..... ٧٢
الموت ليس فناءاً للروح ٧٣
الآخرة في القرآن الكريم ٧٤
التوبة وتطهير النَّفس ٧٧
الخطوة الأولى نحو الجهاد..... ٧٧
أركان التَّوبة ٨١
ثمار التَّوبة ٨٥
الالتزام بالأحكام الشَّرعيَّة..... ٨٩
الهدف من التشريع ٨٩

آثار اتباع الأحكام الشرعية ٩٢
استفسارٌ هام وجوابٌ ٩٦
مرافقة الأبرار ١٠١
أهميّة الصحبة وآثارها ١٠١
معايير انتخاب الأصحاب ١٠٣
العزم ورباطة الجأش ١٠٧
موقعية الإرادة في السلوك ١٠٧
العزيمة عند الإمام الخميني قدس سره ١٠٩
محاسبة النَّفس ١١١
سوء الظن بالنفس شرط ١١١
مراحل محاسبة النفس ١١٢
الأُنس بكتاب الله وتدبّر آياته ١١٧
حياة القلب ١١٧
فضائل القرآن وآثاره ١١٩
الدُّعاء وطلب العَون من الله تعالى ١٢٥
سلاح المؤمن ١٢٥
الدعاء عند الأنبياء والأولياء ١٢٧
التفكّر ١٣٣
حقيقة التفكّر وأثره على السلوك ١٣٣
موارد التفكّر ١٣٩

التفكّر في أحوال الأُمَم السّالِفة ١٤١

خير مُعلّم يحيي النفوس ١٤١

أهداف القصّة القرآنيّة ١٤٦

حاجة الإنسان إلى المرشد ١٤٩

ضرورة مداواة الروح..... ١٤٩

الأنبياء وورثتهم أطباء الروح..... ١٥١

اختيار المرشد الصالح ١٥٣

خاتمة ١٥٧

مصادر الكتاب ومراجعه..... ١٥٩

الفهرس ١٦٣